

إبداعات التفرغ
ضلع أعوج
رواية
نعمات البحيرى
المجلس الأعلى للثقافة



...كرتير التحرير الفنى: هشام ...وار

...لع أعوج (رواية)

...هاب البحيرى

...طبعة الأولى ٢٠٠٨

...مجلس الأعلى للثقافة

...ارع الجبلاية ب... الأوبرا القاهرة

...رقم البريدى [illegible] ١١

...يفون [illegible]

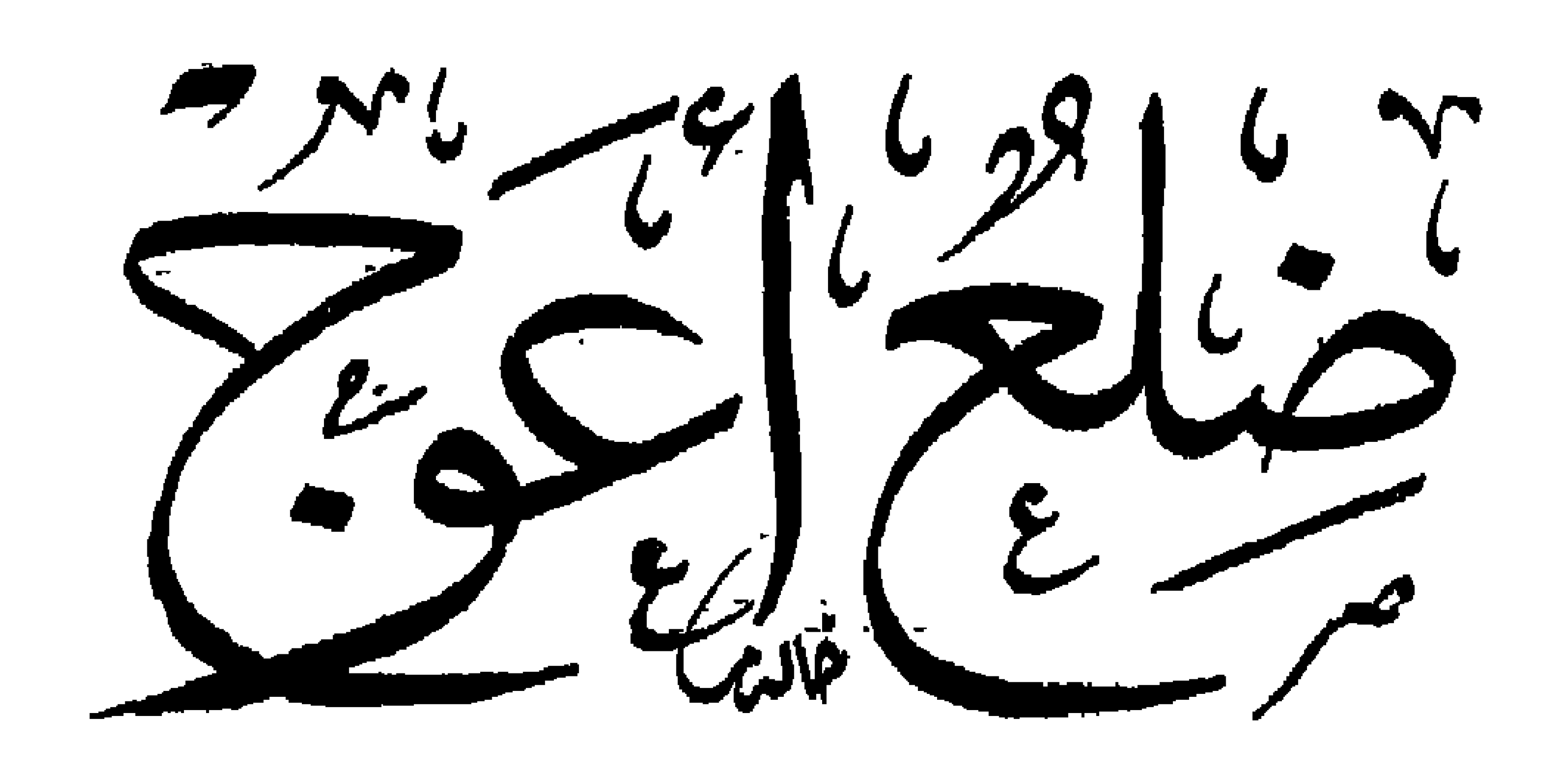
...كس [illegible]

AMIRIA

المطابع الأميرية



إبداعات التفرغ
[٣٧]



رواية

نعمات البحيرى

إهداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

البحيرى ، نعمات
ضلع أعوج ، رواية تأليف / نعمات البحيرى ،
ط ١ ـ القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٨٤ ص ، ٢٠ سم، (إبداعات التفرغ ؛ ٣٧)
١ ـ القصص العربية
أ ـ العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٥١٧١ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-437-550 -5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة - القاهرة ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalay st. Opera Hous, El Gezira

Tel. 27352396. **Fax**: 27358084

إهداء وشكر وامتنان

إلى أصدقائي .... ..

الدكتور جابر عصفور والدكتور فوزى فهمى والأستاذ الناقد الكبير سامى خشبة والدكتور عماد أبو غازى والشاعر شعبان يوسف والروائى يوسف القعيد..

والجميلات الدافئات...........

وداد مترى وسهام بيومى وهالة البدرى وشوقية الكردى وحياة محمود ود. سلوى عبد الباقى ونادية الضحاوى ومديحة عمارة وسلوى محيى الدين والدكتورة ليلى عبد الوهاب وفاتن محمد على ونور الهدى زكى ووفاء حلمى وصفاء عبد المنعم والمقدسة أم يوسف غطاس ومرفت أبو بكر.... وكتيبة من المثقفين والمثقفات فى جيش الخلايا المناعية فى مواجهتى للخلايا السرطانية ....

نعمات البحيرى

وبما أنه لا حق لكل قلب يدق لأجل الحرية فيما يبدو

سوى في رصاصة . فإنني أطالب بنصيبي...

لويز ميشيل

جـــــرح الـــــوردة

ذهبت إليها مبكرا، أعرف جيدا أنها تتنفس أولى زفرات الصباح، مع أغنية "محمد قنديل" "يا حلو صبح يا حلو طل" ... ، حتى فى يوم كهذا .

قبل ذلك بقليل ذهبت إلى عملى، وأبديت فروض الولاء والطاعة لرئيسى المباشر وغير المباشر من أجل إذن بالخروج.. الغريب أن ابنها أفرط فى توبيخى وإيلام مشاعرى حين جاء إلى بيتها، ورآنى واقفة أمام مائدة المكواة، وقد فردت بلوزة حسنية، وبجوارها فستان ماجدة ، كانتا تهيئان بعض الحاجيات لأمهما، فضلا عن الحزن الذى يربك حركتيهما. أشفقت على البنتين من ذلك الرعب الشديد لهاجس الموت الذى خيم على البيت بعد أن عرفتا المسألة..

منذ تزوجته وأنا أدفع كل يوم ثمن إنسانيتى إذا ما جاملت أمه، أو أخته. وقفتى هذه تحدث خدوشا بليغة فى قشرة وجاهته الاجتماعية والأدبية، يبدو أن دراسته للغة الفرنسية، وإدرارها عليه كل هذا المال، جعلته ينظر للناس من ثقب إبرة، وهو واقف فى برجه العاجى، ومن نفس الزاوية يرى أمه وأختيه. وربما يرانى أنا؛ زوجته.

وافتنى ماجدة و حسنية بنظرات أفهمها جيدا ، كل منهما تؤكد لى أنه "برّاوى " من يومه .. صار بينى وبين أهله لغة لا يفهمها لذلك التباعد الذى يلفه بدوامة الدروس الخصوصية... ربته أمه تربية سيد، له كل شىء، وربتهما كإماء، عليهما كل شىء. حتى الزواج لم يكن لهما حظ معه. ولم يطرق بابهما، وقد تجاوزتا سن البهجة والابتسام؛ على الرغم من الجمال الوفير والهدوء المبالغ فيه، غير أن" ماجدة "حصنت نفسها ضد الملل والكآبة، ووسعت دنياها بمهنتها الرحيمة.

حين اقتربت لتأخذ ثوبها أخبرتني بكل شيء، وكنت أدرك - على نحو ما - الأبعاد المأساوية للمسألة. تذكرت أن "أم قاسم" – حماتي - كثيرا ما تقسو على نفسها وليس على الآخرين. هذا النهار لم أتوجس حين رأيتها تتحرك في البيت مثل فرسة متعبة، كنت أمرر المكواة على بلوزة " حسنية "، وأنا أراقب نظرات عينيها.

بعد صلاتها للصبح وقراءة بعض الأذكار ودعواتها" لحسنية" و"ماجدة" بابن الحلال وبيت العدل ودوام الستر، وغيرها لماجد بالرزق الكثير والذرية الصالحة، وضمنيا لا يمكن إغفالي من قائمة الدعوات. أعرف قلب المرأة ومكانتي لديها.

جلسَت أمـــام دولابها القديم ذي المرايا المكسور بعضها، وقامت بتطبيق ما جمعته ليلة أمس من غسيل، قبل أن ترصه في الدولاب فرفت شرابات "حسسنية وماجدة "، ورتقت المقــطوع من باقي الغسيل، وراحت تدقق النظر في علبة الأزرار، وتعمل عملها في توفيق الأزرار والقمصان، ونحّت على جانب ما يحتاج إلى الكي، ثم هفت الغبار عن غرفتها وأعادت ترتيب فراشها، بنفس الرهافة التي تتعـــامل بها مع البشر والزرع وقطط البيت. جاءتها قطتها وصغــــارها خلفهـــا، قاصدات لبن الأثداء. في يوم ولادتها تظل تتــابعها بحرص زائد، وحين تصرخ تجلس إليها لتخفف عنها آلام الولادة، وكأنها تساعد جارة أو قريبة، ثم تتذكر نفسها، وتتأمل قطتها وهي تأكل خلاصها.

في ذلك اليوم تسلق للقطة فرخة كاملة، وتظل " الحسنية والماجدة " تصارعان أمهما على التهام "زفر" القطة، ثم يستقر الأمر على احتساء الشوربة، التي تأنف القطة منها. أوصلت نظراتها إلى " حسنية " فهرولت إلى المطبخ وعادت ببعض اللبن. ثم بدا المشهد شديد البهجة، والقطة تلعق اللبن بفمها وصغارها يستردونه. تجلس أم قاسم إلى جوار قطتها "الوالــدة" بالساعات، تتابع المرح والشقاوة، وتتأملها وهي تلعق صغارها وهم في وهج

الاحتفاء بالدفء واللين، فيتسابقون على الثدى الأكثر إدرارا، وحين تمتثل القطة لنوم عميق، تتركها وصغارها، وتدخل الشرفة لتسقى الزرع، وتنزع حزن الأوراق اليابسة، وتجمعه فى كيس نايلون، وبالماء تقيم أود " ست الحسن" التى شاخت، ومازالت تطرح زهرا بنفسجيا، ثم تسقى الصبارات بقدر طاقتها على الصمود أمام الظمأ والقيظ. بعد ذلك تسقى الحمام فى الغيّة، وتلقى له بالحب، وتنزع مخلفاته مع الأوراق اليابسة، صارت تمعن فى مراقبة زرعاتها، كلما دخلت الشرفة، وتحزن وهى ترى أوراقا يابسة كثيرة تتساقط هذه الأيام، ربما كان السبب مداهمة الشتاء المبكر هذا العام، ثم تحادثها وهى تسقيها وكأنها تمتص رحيقها.

تحسدها الجارات أن نباتاتها وزهراتها تنمو وتزهر سريعا، فتحكى لهن وملؤها الفرح والبهجة، أنها لا تراها مجرد زهرات، لا تقوى على الكلام والحركة ....

".. أراها كما أرى أفراد أسرتى، أحدثها وتحدثنى بحركة أغصانها وفروعها ورائحتها ، تفرح وتغضب، تماما مثل " حسنية وماجدة "، لا أحمل لماجدة هما كذلك الذى أحمله لحسنية ، فهى تعمل، مشغولة بأنين مرضاها، ودواء جروحهم.... " ، ثم تجلس على مقعد فى الشرفة لتبث زرعاتها خوفها من جفاء ابنها وقسوته على أختيه وزوجته.

تفعل ذلك كل صباح، مثل سيمفونية من عدة حركات، كل منها تؤدى إلى الأخرى، بعد فاصل من الحنين الإنسانى للبشر والطيور والحيوانات والزرع والأشياء.

هذا النهار تعزف حركات سيمفونيتها الصباحية، وهى تسلم وجهها النحيل لظلال الغرفة، ثم تهب وكأنها تذكرت شيئا، فتركع أمام السرير، وتخرج صندوقا كرتونيا من تحته. تفتحه وتخرج كفنها؛ ثوب بفتة وثوب دمور وزجاجة ماورد وبكرة خيط بيضاء وقطعة قطن..، تلقى نظرة على تفصيلات الكفن، وقبل أن تنهض عن الأرض تطبق كل شىء، وتعيده

لصندوق الكرتون، وتدسه تحت السرير، وكأنه وثيقة ضمان ضد الموت فى العراء، ثم تنظر لصورة زوجها على الجدار، ذلك الذى كان قادرا على منحها كل شيء يقربها من البهجة، ثم سقطت ورقته ذات صباح. " يارب تبت ورقتنا على سجرتنا ".

تود لوكانت قادرة لحجّت لها وله، إنصافا للعشرة، مازالت تعيش فى الماضى، تتغذى أيامها على ذكريات الورد والفل والياسمين، ثم تهدأ وهى تترحم عليه، فربما صار أهنأ لو كان قد عاصر معها كل هذه الحروب والكوارث، التى جعلتها تحب بيتها ولا ترغب فى مغادرته. هذا غير البوار الذى ساد الأشياء والبشر.

اليوم ستخرج للضرورة وليس لغيرها، ستنادى " حسنية وماجدة " وتوصيهما بالزرع والحمام والبيت وزوجة أخيهما، ربما نسيت أننا جميعا سنذهب معها. تسير نحو باب البيت وكأنها مدفوعة المرة تلو الأخرى، أو أنها ستفقد شهوة الحياة إلى الأبد، إذا ما خرجت منه.

أنصت لكلماتها جيدا وكأنها مفتتح للحن حزين، وأنا أكتم عن "حسنية وماجدة " زفرة حارة. الفزع الصامت امتص بياض وجهيهما، وترك غلالة شاحبة مثل بطاقة رثاء لموت الأم؛ السند والجدار والسقف. هاهى تفرد طولها لباب الغرفة، والقطط تجرى إليها، تتمسح بها، والحمام فى غيّته يحدث بهديله صرخة فى العمر المتعب، ورغم هذا أراها تدخل مسرعة لشرفتها؛ لتتبادل مع جاراتها تحايا الصباح.

حزن عيون حسنية، أفق آخر للبكاء، وهى التى لم تنم منذ يومين، ولا أدرى كيف يمكنها مواصلة اليوم . بلوزتها التى أكويها قاتمة بقتامة السحابة التى رافقتنى هذا الصباح، وثقل اليوم على النفس. حماتى التى أحبها أكثر من ابنها تفتح كل نوافذ وشرفات البيت، حتى لا يكون البيت مكتوما عند عودتها.

وجه ماجدة صار أكثر صحوا ووضوحا، وهى أكثر صلابة منا جميعا. ربما بحكم تجليات مهنتها كطبيبة. حكت أمام حسنية، وأظن أن هذا من باب التخفيف لوطأة هذا النهار، أن نفس العملية، أجريت للمطربة شادية منذ شهر وعلى يد نفس الدكتور، وكان المرض كذلك فى درجته المأساوية. صارت مادة الحديث بيننا عدد النساء اللائى أفلتن من قبضة الوحش المدمر، وعدد أيام ما بعد العملية، واحتمالات مداهمته لها مرة أخرى.

ثم صرت قادرة على الاعتقاد بأن ثمة أمل أن يعود" ماجد" من الدروس الخصوصية اليوم مبكرا، غير أننى أستثنيه دائما فى مثل هذه الأحوال، حتى لو كان الحدث مقرونًا بأمه . لا أستطيع أن أتصور أم قاسم وهى تتخلى عن أماكنها فى الشرفة مع الزرع وغيّة الحمام، و القطط والجيران، لا أتصور البيت إلا بهذا البهاء.

فجأة ونحن فوق سلالم الدرج تركت يدى وعادت مسرعة لتفتح الشقة، وكأنها نسيت شيئا هاما، دخلت مسرعة إلى أنبوبة الغاز لتغلقها جيدا، وكذلك فعلت مع محبس المياه، كما أخرجت كيس القمامة خارج الشقة. قالت وهى خجلى لتأخيرنا على موعد المستشفى :

" معلهشى بقيت أنسى كتير الأيام دى .. موش عارفه إيه اللى جرالى".....

ابتلعت "حسنية" ريقها وزفرت ماجدة زفرات ساخنة، كادت تفضى إلى بكاء، غير أنها دخلت سيارتها مسرعة وجلست أمام عجلة القيادة، وهى تنظر إلى ..

بدت حماتى مثل امرأة ستخرج فى نزهة قريبة وترجع بعد قليل . وبدت نظراتنا لبعضنا مثل مؤامرة. فى سيارة ماجدة حملت حقيبة أم قاسم على ساقىّ وأنا أتابع الطريق وهو ينطوى تحت عجلات السيارة مثل أيام العمر.

عوضتنى عن معاناتى وإحباطاتي مع ابنها، فقد كان ومازال بخيلا ، صلفا، غامضا، قليل الكلام، يعمل كثيرا من أجل النقود انتى يحبـــها أكثر من أى شىء فى الدنيا، ربما أكثر من أمه ونفسه، لم يعد يســتحوذ على عقلى وقلبى، غير أنه يعقد لسانى، إذا ما داهمنى بالحديث، فأبدو لكل من يرانى ضعيفة، هشة، ولا أحد يعلم سر تعلقى بهذه الأم وهذه الأسرة، لكن ما أراه بوضوح الآن هو كيف نجوت بمعجزة هذه المرأة، من معـــاناة المصير الردىء فى صحراء لا تنتهى.

كانت ماجدة فى ثوب الطبيبات الأبيض قد رفعت كمامتها وخرجت، غير قادرة على أن تواصل المشهد الذى فيه الأطباء يستأصلون لأمها جزء حيويًا من جسدها.

فى دائرة غامت الألوان والأسباب والأيام ووجوه البشر. وفى نفس البيت مازالت حماتى تعزف سيمفونيتها الصباحية، متعددة الحركات مع الزرع والصمت والكلام والحمام وكرتونة الكفن وصورة الجدار، وقد تزوجت كل من "حسنية وماجدة "، وامتلأ البيت بالأحفاد، أما أنا فقد تركت ابنها إلى الأبد، غير أننى مازلت أزور أم قاسم وأنصت جيدا لسيمفونيتها الصباحية، مع ماجدة وهى تتشكى أن أمها، حماتى السابقة، تجلس إلى والد زوجها بالساعات، وأنها بالأمس كانت فى شبه مناورة عاطفية معه. كانت تؤكد للرجل الذى تجاوز السبعين أنها يتيمة ووحيدة، كما أنه أيضا يتيم ووحيد، وفى حاجة إلى ونس...

ترد حسنية وهى تحاول أن تسكت ابنها الذى يبكى..

- شوفى الولية ...انت ازيك..

الحبل الشرى

أبحث عن مسافة ضوء للمرأة الواقفة فى الممر المعتم ...

بعد سنوات معه نبت فى حلقى فطر غريب، ملأ جوفى بمرارة، ورغم هذا كنت ألاعبه كل مساء بلعبته المفضلة ...

يلقى بوريقاته على المائدة ذات المفرش المزهر .. واحد ، بنت، خمسة..

وألقى بوريقاتى .... ثلاثة ، بنت، ولد...

وكنت أدعه يغلبنى ويضحك، ثم أدعه يغلبنى ونضحك، فمن الأفضل تجنب جميع الأسئلة.

أتذكر أننى كنت أضحك ضحكات مضطربة، مليئة بالمتناقضات، وفى نفسى سؤال، ينهض مذعورا ..

" أى نهر هذا الذى نغترف منه ضحكات كاذبة ؟ ".

مع الأيام والشهور والسنوات خفتت الضحكات، ثم تلاشت، وصارت ترعبه صورة الشايب بين الأوراق، وشيئا فشيئا لم تعد هناك أدنى ضرورة لحذرى الكبير، فاتفقنا على الطلاق.

كنت أوقن أن العالم حولى يرزح تحت فيض من كوارث ونكبات، كما أوقن أنى - ولا فخر - جزء لا يستهان به من هذا العالم، وهو إحساس خاص بى داخل حركة الأيام والحياة؛ لذا فقد أسلمت حزنى للريح .

ومثل السنابل المتعالية أحنيت رأسى للعاصفة، وقلت للمرأة التى تشبهنى وعبرت الممر المعتم

" ثمة هاجس جميل يحثني على الحياة .. فهناك سعادات وبهجات أخرى، غير تلك التي مع الرجال والأطفال والأزهار، تلك التي كنت أرويها في بيته كل صباح."

بعد الطلاق عشت في غرفة صغيرة بأحد البلوكات التي تمنحها الحكومة للذين تتهدم بيوتهم وقت الزلازل والسيول و الكوارث الكبرى، وعدت إلى عملي كموظفة مثل بعض نساء الأرض، وصار من الضروري أن أفتح نافذتي للنهار الحتمي الذي سيطلع عاجلا أم آجلا. دفقة الصباح الممزوجة بصياح ووجوه الأطفال تثير أشجاني.

كنت أخرج في الصباح، تتعثر قدمي في رمل وزلط الجبل المبذور بالأطفال ...أراهم يلعبون، يتصايحون، يتشاجرون في أثمالهم الرثة. وحين يرونني، يقبلون نحوي مثل فراشات نحيلة " إزيك يا أبلة .. إزيك يا أبلة ". كانوا يمدون أيديهم السمراء، المتسخة بتراب الجبل ـ مساحة ترابية ورملية أمام البلوكات ـ ليحظى كل منهم بسلام " الأبلة "، و كنت أردد في نفسي، للمرأة التي عبرت الممر

ـ " واحد مثلهم فقط .. كان كفيلا بأن يبقيني في بيت جميل، أنيق، دافيء، رحب، بجوار الأزهار والرجل الذي أحببته ".

ثم ملأتني الحسرة لأنني أرى أغلبهم بلا أمهات، وكان قلبي ينتفض مثل طائر دبت فيه الحياة من دون أن يطير عاليا .

وفي عودتي تلقاني نفس الوجوه الشاحبة والنحيلة والمتسخة، لتزفني في موكب جليل حتى باب غرفتي، موكب من جماجم، لا تنصرف إلا بباكوات النعناع التي أحرص على شرائها من أجلهم.

تذكرت وجها يشبه " بوكاسا " إمبراطور أفريقيا، واطمأن قلبي قليلا، فهؤلاء الأطفال لن يحركوا شهيته، ولن يجد متعة في التهامهم، كان يهوى الأطفال "الملظلظة". حين تم القبض عليه، عثر في ثلاجته على طفل ملظلظ

متبل، مهيأ للشى. كان ينادى بأكل لحم الإنسان، مفرطا فى وصف كم هو جميل ولذيذ ،ساخرا من الذين يتعففون من أكل الإنسان والقنابل تحصده كل يوم بمئات الألوف.

أخرجت أطفال البلوكات من قائمة مشهيات بوكاسا واسترحت وكأننى صرت أعيش على نحو أفضل .

لم يكن لى من أهل أو أصدقاء غير تلك الوجوه الصغيرة الشاحبة، ووجه صديقتى فاتن ، أم مروان وعمر، كثيرا ما تنشغل عنى بإطعامهما، وحين يبلغان حد الشبع تأخذهما لدفء الفراش مثل قطين هادئين.

تمارس " فاتن " طقسها اللذيذ فى حضرتى، فتظل تطعمهما بيدها، و إذ هما يتأبيان، تسألهما عن أسماء رفاقهما فى الحضانة، فيجيبانها " مصطفى وتامر ونهى و سهى "، وتبدو لى الأسماء فى أفواههم مثل مواد مساعدة للهضم أو مكسبات طعم، وأنا أتابع الطقس اللذيذ، و الفطر الغريب يتلاشى من حلقى شيئا فشيئا.

ذات صباح رأيت " فلة " كلبة عم جابر، ساكن الطابق الأرضى، وقد خلفت خمسة جراء مغمضة، تتمدد تحت نافذتى، تلعق صغارها، فألقيت لها ببقايا طعام. وحينئذ سألنى عم جابر مع تحية الصباح عن أسماء جميلة لأبناء وبنات "فلة"، فأخبرته عن أسماء مثل فارس و فوكس و شبل وسبع، وهى أسماء يمنحها الأغنياء لكلابهم استكمالا لمظاهر العظمة.

ابتسم الرجل وراح يردد الأسماء في فمه الخالى من الأسنان، فى محاولة جادة لحفظها. والجراء الصغيرة لا تعبأ بحديثنا، ما تزال مغمضة العيون على وهم الطعام والدفء .

فى المساء حكيت لفاتن أم مروان وعمر عن " فلة " وجرائها الخمسة، فابتسمت وهى تمنح الصغيرين وعدا بزيارتى ومشاهدة " فلة "

وصغارها" شبل وفارس وفوكس وسبع " و غيرها. وحين يقبل موعد العشاء أراهما يتسابقان فى الاختفاء، فتجرهما مثل قطين للطعام.

كنت أطرب إذ يتناغم صوت الطفلين مع حركة الملعقة فى الطبق الصينى المنقوش بزهور وفراشات.

فى الطريق إلى البلوك أرى نفس الوجوه الشاحبة والأيدى المتسخة والعيون الشقية تحفل بلقائى، وأجزم أننى لست نادمة على أننى لم أمنح الدنيا طفلا، أزج به بين زحام الكوارث والنكبات. كنت أحس بهم يأخذون بيدى بين أيديهم السمراء، ووجوههم الشاحبة، يتسابقون بالابتسام والسلام ، فيتوهج فى نفسي بريق جميل، بأن الحياة يمكن أن تساويها لحظات كهذه، وصرت كلما داهمنى الضجر ومرارة الوحدة، أنادى "شيرين" بنت سميرة ساكنة الطابق الأول، أسمعها يوميا تتشاجر مع شقيق زوجها، ذلك الذى يقاسمها الغرفتين، مع أربعة أطفال و كلبتين. أرى "شيرين " مهوشة الشعر، ضئيلة الحجم، تتسابق وقطط البلوكات على أكوام القمامة التى يلقى بها ساكنو الأحياء الراقية أمام البلوكات. وحين يدركها ندائى، تلبيه مثل فراشة تتقافز فوق النهار، فحتما سيسفر ندائي عن باكو نعناع أو لبان أو سلام للأبلة .

وفى رحلة الصعود إلى غرفتى تستغيث" شيرين " بزوجة جابر لتخلصها من كلبتهم " فلة "، وفى الطابق الأول تستغيث بابنة عمها؛ لتخلصها من كلبتين اشتراهما عمها من " رديف " كلاب البوليس. وفى الطابق الثانى تنادى أم سيد لتحبس خروفها خوفا من نطحاته. ثم تقطع السلالم والخوف لتدق بابى بدقاتها التى تشبه نقرات منقار عصفور.

أتمادى فى الصمت، لتعيد " شيرين " دقاتها على الباب. وحين أسألها عن أمها تخبرنى أنها لا تعرف أين ذهبت، ربما لتأتى بالطعام وتطفر فى ذاكرتى حكاية الأم التى أوقدت النار تحت القدر المملوء بالماء والحصى. أتذكر شهيتى المغلقة منذ زمن، وتدفعنى وشيرين إلى المائدة الصغيرة، لنعد

طعاما سريعا. تفرح بالرائحة الشهية وأنا أرص الأطباق، ثم أسمع صوت ملعقتها وهى تترنح فى الطبق، وعيناها المندهشتان تمسحان محتويات الغرفة.

الصور على الجدران والملاءة النظيفة على السرير، والسجادة المزركشة والثوب المعلق وبعض الكتب. أخطأت الملعقة طريقها إلى فم شيرين أكثر من مرة. الأمر الذى أغرانى بممارسة ذلك الطقس اللذيذ، وتذكرت صديقتى فاتن وطفليها، وذلك الفطر الذى لم تعد مرارته تتمدد فى حلقى.

تجيبنى" شيرين " بصوت رقيق عن سؤالى لها بأسماء أخوتها...

الكبرى ولاء والثانية ليلى والثالثة ضحى. وتمضغ شيرين الطعام وتواصل....

على وعادل وهناء ..... وبعد الملعقة الثالثة تستأنف الأسماء.....

فرغ الطبق ولم تفرغ الأسماء، وبدأ فى موضع قريب من عقلى ينمو فطر غريب، ثم يطفر خارج الحلق وفوق الجلد وداخل الغرفة والليل.

أحزان زين الرجــال

لم تكن خالتى تحبنى، ولو حدث لمنحتنى فرصة طيبة للحياة. الآن أراها تلبس وجها مغايرا للود الناعم ، وتداعب الهواء الذى أتنفسه.

فى ذلك اليوم أتى المساء مبكرا على غير العادة، وكانت أمى تقبع مثل عادتها فوق سجادة الصلاة، تتشكى من جحود الأهل والجيران، وحين رأتنى قالت ..

" اسألى عن خالتك .. سألت عنك كام مرة " ..

لم تعد أمىَ الطيبة تتذكر حريق الحزن الذى شب فى بيتنا أيامها، ثم منحنى بطاقة مجانية للقلق، أنتفض كلما هب النسيم يداعب خصلات شــعرى أو ستائر بيتنا.

على غير عادتها استقبلتنى خالتى بابتسامة وأحضان وقبلات. ورغم هذا لم تستطع أن تخفى سر بيتها وظلمة حجراته المختنقة برائحة الطبخ والبخور. لم تكن هناك صورة واحدة على الجدران، والغبار رفقة سيئة للستائر والأبواب وما تبقى من أثاث قديم. كنت أوقن أن ابنها ينكمش على نفسه فى حجرته الداخلية الرطبة، دون ضوء أو هواء. عاد من الخليج ليدخل الشرنقة، وها هو يتقلب فى فراشه مثل دودة، تصلنى من الداخل وطأة أنفاسها ...

صار مثل أمه يتنفس عطن السكون. فى البدء أخبرتنى أن " أسامة " سيأتى بعد قليل، وما علىّ إلا أن أحدثه عله يتراجع . الأحلام تستعيد زمانها الأول ..ما هذا ؟ أمازلت أرقب حصى الأرض التى خذلتنى.

لم تنس خالتى أن تحذرنى من تحيته باليد أو إعلاء صوتى فى حضرته، همست وهى تتلفت هنا وهناك " بيقول حرام "..

كنت أجلس فوق سريرها القديم، وصورة زوجها على الجدار المقابل، ولم أكن قد نسيت تماما ذكرياتنا معه، لم تفرغ جعبته من حكايات عن السرير القديم، والدولاب القديم ، كان يحكي بمرحه الوفير، تلك الحكايات التى تناقلتها نساء العائلة جيلا بعد جيل، وهن يتغامزن رافضات الإفصاح بسر السرير والدولاب.

لكننى وبطرق عديدة عرفت أن جدى الكبير مات على السرير ذاته موجها رأسه للدولاب، وقد تجاوز أعوامه المائه، وكان سليما معافى، وفيما بعد ورثه جدى الثانى فخلف من الصبيان أربعين، ولما آل إلى خالة جدتى لاعتبارات خاصة ، خلفت من الصبيان خمسة عشر ومن البنات ثلاثا. عرفت عن السرير والدولاب أسرارا ودهشة، حتى انتهى بهما المطاف فى بيت خالتى أم " أسامة "، وكانا - كما أدركت فيما بعد - السر وراء خلفة خالتى للصبيان، بينما نكبت أمى بخلفه البنات كما تقول جدتى.

ليست هناك ساعة حائط أو نتيجة للأيام و الشهور، أو تفاصيل بيتية كتلك التى تغرق فيها غرفتى . أقلام وزهور ودبابيس شعر وعقد فضة، وأوان فخارية ومنضدة صغيرة عليها مفرش من الكروشيه الأبيض وعلبة كريم وشريط لحام وكرات صوف وزهور يابسة وكشكول تذكارات .

وضعت خالتى " سبت الغسيل " فوق السجادة الشاحبة، المنسوجة من قصاقيص القماش ، وراحت تأخذ قطعة فأخرى من ثياب " أسامة "، لتطبقها وترصها فى أناة وحذر فوق بعضها ، ثم تسألنى فى ود غريب " تشربى شاى؟"، فأرد مرحبة " أشرب " ..

ترص خالتى من الثياب نصف عامود، وتخبرنى أنها تفكر فى زواج "أسامة " ولا أستطيع اعتبار تلميحاتها بداية جديدة لعودة ما كان، بعد أن

صارت القطيعة بيننا، تحديدا منذ طنت فى أذنيه فراح يؤجل أفراحنا لأجل غير مسمى، بعدها أدركت أن قدرته على تحويل أحلامنا إلى سراب غير محدودة. والآن تؤكد خالتى بأوامرها ونواهيها أننى مازلت خارج حساباتها، ولم أستطع تجاوز تلك الرائحة وذلك الشعور الكثيف بأن بيت خالتى صار مثل مقبرة، وهى تعود لتسألنى عن عروس لأسامة. فى البدء خلتها تفتعل دعابة بريئة لفك كآبة الجلسة، رغم يقينى بعجزها عن القيام بمثل هذه المحاولات النبيلة، لكنها عادت تكرر كلامها عن زواج " أسامة ".

عاد شعورى السابق يؤكد أن بيت خالتى صار مثل مقبرة، نفس الشعور الذى داهمنى بعد موت زوج خالتى بأيام، أحببته دون رجال العائلة. أجزم أننى أحببته أكثر من أبى.

أقامت خالتي من ثياب ابنها عامودا متماسكا، وتساءلت بينى وبين نفسى وأنا أتابع شحوب بياض الجلابيب والطواقي والثياب الداخلية ....

" أأبحث عن عروس لذلك الذى كان يأخذنى لحدائق البهجة ؟ " ...

وتراءت لى عبر الجدران الشاحبة صورة لنا معا، وكنا نحس الحياة وزدة طيبة، ننثر أوراقها ورقة ، ورقة ، ونتساءل " ح نكون لبعض ... والا ...." . تخففت من حزنى كعادتى بعد كل محاولة خبيثة لخالتى أو للزمن، وأخبرتها أن أغلب اللائى أعرفهن يتراوحن مابين أرامل ومطلقات وعوانس، من جراء ما آل إليه الزمن من حرب وبوار.

لم ترد خالتى ثم سألتنى فى ود غريب

- " تشربى شاى "

ورددت مرحبة فاتحة قلبى للزمن .

ـ " أشـرب". أغلقت خـالتى ضـلفة الـدولاب القديم ذى المرايـا بعـد أن رصت ثياب " أسامة " . صـرّ الـدولاب ونـشر فـى هـواء الغرفـة رائحـة قديمـة. أرى خالتى وهى تقبل علىّ، تبث كلمات الترحيب مثل تثاؤب.

استرعى انتباهها شكل الأزرار التى اختفت من قميص أسامة، فراحت تبخ زهقها فى كلمة " أوفف "، ثم نحت القميص جانبا وهى تبحث عن علبـة الخياطة. كانت تخفيها عنا فى عمق الدولاب، فأسرعت وكأننى أبحث عن حلم قديم. نفس العلبـة التـى أعرفهـا مثـل نفسى، ذكرتنـى برائحـة السنوات التـى تجاوزتنـا، علبة شيكولاتة مؤطرة بمـاء الذهب، مرسوم عليها قطـع شيكولاتة متراصة فى نسق جميل. كنت أتشاجر و" أسامة " وبقية أطفـال العائلـة علـى اللعب بها. وكأن خالتى تذكرت فجأة شيئا فقالت : " تشربى شاى ؟ "

لضمت الإبرة بفتلة بيضاء، تمهيدا لإعادة القميص لأزراره، ورأيت فى عينيها فرحة الزهو بلم الشمل وقالت " أنا قلتلك و السلام .. إبن خالتك تعبان .. من يوم مقصوفة الرقبة ما سابته وهو فى النازل ".

كنت مـا أزال أجيد لعبتـى القديمـة فـى الاسـتخفاف بعقول البشر، حين أراهم يبالغون فى أحزانهم، فقلت لها

- " سمعت إنها رجعت له .." .

اندفع كلام خالتى مثل مدفع رشاش ...

" رجعت الميه فـ زورهـــا .. رجعت فـ كلامهـــا تـاني "، ثم أومـأت لى بفتح الضـــلفة الأخيرة من الدولاب. فتحـــتها وأنا أتوخى شديد الحذر حتـى لا يداهمنى ذلك الصرير، ثـم شـعرت برجفـة، إذ تـراءت لـى أيام موغلـة فـى البعد....

" وأنا طفلة تليق بالمرح والبهجة، كنت أقف أمام مرآة الدولاب القديم، فأشـم عبقًـا غريبًـا، وأدور حـول نفسى، فـــاردة ذراعـيّ للهـواء والـضوء،

لينتفض " كلوش" فستانى القصير ذى الكرانيش، يلف حولى مثل طوق للفرح، ثم يأتى أسامة لابسا بدلة العيد وطربوش جدنا، نقف متجاورين أمام المرآة، كما لو أننا فى وضع تصوير، أضحك وأنا أتساند بكتفه، وشيء يحرك الهواء الساكن في الغرفة، فيهمس " نلعب عريس وعروسة "

وبعيدا عن فضول عيون خالتى وجاراتها الثرثارات كنا نلعب، مستخدمين الملاءة المحلاوى، ذات المربعات الزرقاء والبيضاء، فنشتبك مع الغروب فى لحظة فرح. ومن خلال ظواهر طبيعية، لم نكن أدركناها بعد، مثل المد والجزر والسكون والانحسار، كنا نمنح أنفسنا قدرة أخرى على الكلام. وكان ذلك يمثل لى وله التجليات البكر، لقوى غامضة، بعدها صار لدى ولديه شعور حاد و كثيف، أن كلاً منا للآخر.

صرّت ضلفة الدولاب صريرا غير مألوف، فأغلقتها وعدت إلى السرير، وكانت خالتى مازالت تبالغ فى زهقها عبر كلمة " أف "، وهى ترى قمصان أسامة وجلابييه منزوعة الأزرار، بعدها استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، وأخبرتنى أنه حين يأتى أسامة سوف يرد لها دينها.

بمقدورى الآن وصف وجه خالتى الذى يطفر بانفعالات حادة، وكأن الزمن يتفجر بين ملامحها بالخوف والقلق والغضب والضجر، ليضغط أكثر على غلاف دمعى، فتقرر فجأة أن تنهض، مؤكدة أنها أبدا لن تغيب، فسوف تخطف صلاة المغرب قبل مقدم أسامة. ويمنحنى انشغالها بالصلاة فرصة طيبة لتأمل السرير القديم والدولاب. كلح لونهما وبرزت وجوه أسود الأويما فى المقدمة، وتغبشت الجدران، وتخربشت الأطراف وهبطت كثيرا لتقترب من الأرض.

كانت الملاءة القطنية ذات المربعات الزرقاء والبيضاء شاحبة، وفى عقلى فتحت صفحة ناصعة للأيام البكر، وهى تفر هاربة من المربعات الزرقاء إلى الأخرى البيضاء، وتدافع نحو سطح الذاكرة ذلك اليوم الذى كسرت فيه حصان أسامة الحلاوة وأكلته، ورميت عروستى القطنية فى "الخرابة"

المجاورة ونزلت الشارع، وشتمت ابن الجيران وبصقت على وجهه حين اغتاب أسامة، بعدها رحت ألعب لعبتهم. كان يلعب وأنا أتابع حركة قدميه وأهدافه فى مرمى الآخرين، وأصد عن مرماه أهدافهم. يومها أقسمت خالتى لجاراتها الثرثارات أن بنت أختها طالعة " مدگرة "، وباستبعاد أية أقاويل أخرى صار عيال الأهل والجيران يخشونني. الغريب أن " أسامة " الذى كنت قد رأيت منه تشجيعا، صار يرانى مجرد حارس أمين لمرماه، ومتابع جيد لأهدافه فى مرمى الآخرين.

مع الوقت زهدت اللعبة وأدركت فيما يشبه اليقين أنها لم تعد على مستوى أحلامى، وكان عقلى مفتوحا للرياح والأعاصير ثم صرت أؤكد لنفسى أن الغد لى .

وفى الجامعة رحنا نتلافى دخان القنابل المسيلة للدموع، وحين رآنى أسامة أقسم أنه كمن يرى جان دارك مثل فراشة نحيلة، كما أقسم أن القنابل لم تسل له دمعة واحدة، بعدها حملنى على كتفه وسار بي وسط حشود الطلبة والطالبات لنهتف بشعارات، أعتقد أنها كانت نبيلة، كما أعتقد أن أسامة كان صادقا حين قال " صوتك حلو يا بنت خالتى .. كله أنوثة ".

وفى تلك اللحظة تعانقت البهجة والفرح، وتوالت الأيام بأحلام انكسرت، جميعها مثل عرائس الحلاوة.

" تشربى شاى ؟ "

ضغطت خالتى بكفها عمود الثياب الذى مال قليلا، وهى تقول :

" الرجالة كمان بختها بيميل .... زمن "

وضحكت فى نفسى للزمن الخبيث الذى يساوى بين الرجال والنساء فى ميل البخت،وأومأت لخالتى بأن تطمئن، وتدع لى مسئولية إقناع ابنها، حتى يعدل عن قرار انسحابه من الدنيا من أجل فتاة فى نصف عمره تقريبا، ولم تحبه يوما، رغم أنه انتقاها صغيرة جدا ليضمن تشكيلها وفق هواه.

بصقت خالتى فتلة صغيرة كادت تبلعها، وواصلت حديثها المكرر، والذى صار مملا عن مواصفات العروس المنشودة ...

"تكون بنت حلال منكسرة، غلبانة ومقطوعة من شجرة "، وتذكرت أن العروس السابقة كانت تحمل نفس المواصفات، وابتلعت خالتى فتلة أخرى وبصقتها ثم قالت..

"يخرب بيت عقلى ... تشربى شاى ؟ "

وكأن خفافيشا غير مرئية تسكن بيت خالتى استيقظت فجأة، لأشعر بحركة غريبة، بعدها نهضت خالتى وناولتنى فوطة صغيرة لأستر بها ساقىّ كما قالت. ثم طالبتنى بمساعدتها فى نقل ثياب" أسامة "، كانت متراصة فوق بعضها، ملونة وحريرية، فتراءت لى أيام العواصف التى كانت تمر على بيتنا دون أن تترك أثرا...

أخبرتنى خالتى أن أسامة قادم بعد قليل، فتناولت ثيابه الحريرية، وسرت وكأننى فى موكب فرح، وحين فتحت ضلفة الدولاب تجاوزت صريرها الغريب، مشدودة بتلك القدرة الخارقة لأجنحة الذكرى، ووضعتها بأعلى رف، على غير رغبة خالتى التى شدنى صوتها من أعصابى .

ـ الله يسامحها .. عملته زى الخاتم ف إيديها.. صحيح الرجالة بختها بيميل زى البنات " .

وفى لحظة خرج علينا الشيخ " أسامة "، فنهضت أمه وراحت تتلقفه بالوجل والترحيب .. كان مرتديا جلبابًا أبيض وطاقية بيضاء مشغولة، وتغطى لحيته الطويلة نصف صدره، والمسبحة فى يده مثل حبات ضوء. بدا وكأنه يزيح بها الظلمة.

لم أكن قد رأيت "أسامة" منذ سنوات طويلة، تحديدا قبل سفره بأيام، وربما قبل سفرى بأسابيع، وكنت قد نسيت تنبيهات خالتى،الخاصة بعدم تحيته باليد، فمددت له يدى بالسلام، وكلى شوق أن ينهض معى، ببقايا

الرجل الذى عرفته منذ بكرة صباح عمرى. تلقيت منه نظرات مصاغة من جليد وصمت وأسمنت، وفى نفسى رغبة أن تتحرك الشمس أو تكف عن دورانها المعتاد حول الأرض ، فتدخل النوافذ والشرفات ثم تنطلق كالسهم نحو القلوب.

تخيلت أنه لم يرنى، غير أن اسمى الذى بين شفتيه محييا وسائلا عن أمى وأخوتى، أكد لى عكس ذلك. كنت أتأمله وكأننى أرى كهلا غريبا عنى، أو مجذوبا يدور فى فضاء ضيق، أحدق فى وجهه وجسده وكأننى أمام كتلة زجاج هش، أسمع وأرى وأحس ما بداخلها. وبصوت غير مشوب بالحذر تحدثت إليه، مطالبة إياه أن ينفض الغبار عن جدران بيتهم، ويفتح نوافذه وعقله للشمس، وليخرج معى للدنيا التى كنا بها نحلم، فالعالم حولنا يتغير بسرعة البرق.

وكأنه يسجل علامات استفهام أو مخالفات مرور كان ينظر إلى. فى البدء فرحت أو تخيلت أنه يسمعنى جيدا، فيعى ما يسمع، متذكرا حلمنا القديم الذى نسجناه معا من القصاقيص الملونة ، وسوف يتخلى عن الرجل الراغب فى الموت مبكرا. غير أنه انصرف نحو أمه، يتحدث بلهجة صارمة، مؤكدا لها أن ابنة أختها تبجحت كثيرا، ولا بد أن يسكت صوتها العورة.

الغريب أن خالتى بدت وكأنها تسترضيه، فقد سمعتها تقول فى شبه تواطؤ بأننى هكذا منذ ولدت " مسحوبة من لسانى " ...

ومثل خفافيش الليل اندس " أسامة " فى الظلام، وانتبهت إلى أن مرايا دولاب خالتى مغبشة و مشروخة ومكسور بعضها، ولابد من انتقاء زاوية أخرى للرؤية.

سرقـــات نهاريـــة

كيس الفوط الصحية الذى خرجت به يده من عمق الدولاب هو غلّة هذا النهار.

شعر بالكيس مثل صفعة على وجهه، فكتم غيظه و نزع عن الفوّط غلافها والشرائط اللاصقة، وتحرك بين ركام الفوضى التى أحدثها بحثه العنيف عن نقود أو ذهب دون جدوى. و بقلم أحمر شفاه مكسور، ترك على مرآة التسريحة شكلا قبيحا وكلاما بذيئا.

كان قد ظل لأيام وأسابيع طويلة، يترصد صاحبة الشقة، وهى تسير لمسافات طويلة إلى محطة الأتوبيس، ويرى جيرانها يركبون السيارات الفارهة، وينفقون ببذخ على القطط والكلاب وواجهات فخمة للشرفات، فأدرك بحذق الفاهم أنه ربما كانت المرأة غريبة الأطوار، أو من هواة الاكتناز، ولن تخرج غلة يومه عن نقود أو ذهب..

أطاحت قدمه بكل ما اعترضها من أحذية مقلوبة، وحقائب جلدية وأوان فخارية ونباتات وأزهار .

بدا كمن يثأر لكرامته المهنية كلص محترف، وهو يطـــيح بعلبة صفيح ملونة، تكتظ بشرائط كاسيت لعبد الحليم وشادية وفيروز وألحـــان وأغانى لسيد درويش وسلة من القش، تحوى كرات من الصـــوف الملون، وإبر للتريكو والكروشيه، مغروزة فى بطون كرات الخيط ، حتى السجاجيد المصنوعة من قصاقيص القماش، كومها وسط الفوضى. كل هذا والصور "أبيض فى أسود"، للمرأة صاحبة الشقة تلاحقه من مكانها فوق الجدران، بابتسامة جزلة، توحـــى بمعنى ما، غامض ومثير للحيرة، ولا يبدو عليها

الكثير مما تخيل من الحمق، كما تخيل منذ بدأ فى مراقبتها، وأخيرا هذه الحسرة الشاملة التى طرحته أرضا، فتهالك على مقعد قديم ودخن سيجارة.

على الجدار المواجه إحدى الساعات معطلة، والأخرى تشى بأن هناك بعض الوقت لينهض من جديد، فيعيد المحاولة. طفاية السجائر من ودع البحر، و" فازات " من زجاج ونحاس وفخار تحفل بورد بلدى نضر، وفازة من خشب الشجر دون ورد، وعجلة حربية صغيرة من فضة تحمل صورة للمرأة صاحبة الشقة، ولمبة سهارى نمرة خمسة، وأخرى نمرة عشرة، وبلاص من فخار تبدوا مثل أيقونات مقدسة على مائدة جانبية.

نظر إليها عبر زجاج الصور وهو ينفث دخان السيجارة ، وابتسامتها تثير فيه شيئا ما، فبدت له و كأنها تلاحقه. أغلب الصور لها فى شتى مراحل العمر. وهى طفلة عارية، تنام على بطنها، وغيرها وهى تلميذة صغيرة بضفائر وشرائط، وغيرها وهى صبية يافعة بشعر قصير مهوش، ثم وهى شابة جميلة وسط رفاقها فى الجامعة.

كانت فى جميع الصور بنفس النظرة المتوثبة للأفق الممتد، وابتسامة عذبة بطزاجة الأمل والزمن. لاحقته عيناها من تحت زجاج الصور ، تسخر من ترتيباته الخائبة . وفى محاولة للتخلص من نظراتها، راح يمسح بقية الشقة بعينيه.

دولاب قديم للأوانى الفضية، أسندت ساقه اليسرى بحجر...ومكتبة خشبية تكتظ وتنوء بالكتب القديمة والحديثة و الجرائد و المجلات...ومائدة طعام مستديرة بمفرش قطيفة قديم، ذى نمنمات شاحبة وشراشيب معقودة ...

والمطبخ واسع بلا باب، مسدلة عليه ستارة من نسيج الكروشيه، ومشغول عليها من نفس النسيج أطفال عراة بأجنحة، وأحصنة جامحة وفراشات وملائكة. ومن خلال الستارة يبدو الأثاث المعدنى وثلاجة قصيرة

من إنتاج " ايديال " ، وبوتاجاز من إنتاج المصانع الحربية، وأوان نحاسية وغيرها فخارية فوق أرفف مزدانة بمفارش من كتان.

انتابه شعور بأنه دخل ليسرق شقة في فيلم مصري أبيض وأسود، وأنها سوف تقفز من بين زجاج الصور لتتجاوز الزمان والمكان وتداهمه. تذكر أنه يراها وقد جاوزت الأربعين بقليل، ومازالت تحمل ملامح صور الجدران ، و تلك الابتسامة الغامضة التي تتسق معها، وتبدو وكأنها توجهها إليه لإحراجه والسخرية منه. كما تذكر أنه يراها تقطع مسافات طويلة بحيوية شابة، متجاوزة تداعيات السن والوحدة والكآبة.

أتاه صوت من المطبخ يشي بعطل ما في السباكة. تجاهله وواصل بحثه في دولاب الفضية القديم ذي المرايا والأرفف الزجاجية... أكواب بلورية من زجاج ياسين ، و فناجين بيشة منقوشة ، وأوان نحاسية بنمنمات مفرغة . بدت جميعها في نسق جميل وكأنها تحف ثمينة. وعلى الرف العلوي طبق صيني كبير، مزخرفة حوافه بماء الذهب ،كان مكسورا وقد عالجته بمادة بنية لاصقة.

داهمه نفس الصوت يأتي بإيقاع منتظم ، فاتجه إلى المطبخ متعثرا في فوضى الأشياء. كانت الحنفية مربوطة بمنديل حريمي مبلول، وتبدو مثل امرأة مصدّعة الرأس. ضغط عليها بقبضته فصارت تخر بالماء أكثر من ذي قبل، وصوتها مثل وخز الإبر ، ولسعة البرد تتوغل في جلده ، فاحتمى بشالها الصوفي الذي كان ملقى على الكنبة ولجأ إلى المكتبة متذكرا أيام الطفولة، وقت كان يدس ويخفي مصروفه في أحد الكتب. صارت الكتب أمامه أهرامات ، ولم يجد غير صورة شاب وسيم ورسائل غرامية قديمة وزهرة بنفسج يابسة ومنديل رجالي مطبق، ونقط ماء تأتيه عبر إيقاع منتظم من الحمام.

نحى ركام الكتب جانبا ، ودخل ليحكم غلق الحنفية بقبضته. هي الأخرى مربوطة بمنديل حريمي مبلول ، ثم باءت محاولاته في إحكام غلق

الحتفيات بالفشل ، فصارت أصوات نقط الماء مثل أسراب ذباب عنيد، أصابته بتوتر بالغ، الأمر الذى ألهب فى نفسه ، ومن جديد حمية البحث.

فى زاوية المكتبة علبة قطيفة ببقايا احمرار، وحين فتحها وجد دبلتين من ذهب ، مبرومتين ، وكل منهما فى مواجهة الأخرى . دسهما فى جيبه وتوهج فى نفسه الأمل ، و هو يدرك جدوى البحث فى دأب ومثابرة ، ثم راح يصفر لحنه الخاص لينشر حوله إحساسه الجديد.

بين الكتب عثر على مظروف قديم ، يحوى صورا " أبيض وأسود "، تناولها بالفحص والتدقيق، ممعنا النظر...

صورة لها وهى تتسلم كأسا وشهادة تقدير وتصافح عبد الناصر..

وأخرى لها وهى على خشبة مسرح تمثل دورا فى مسرحية ...

وأخرى وهى تلقى خطبة وسط لفيف من طلبة وطالبات...

ثم مجموعة أخرى من الصور فى مظروف أبيض ، شابه اصفرار الزمن، والشاب نفسه يرافقها فى أماكن عديدة.

عند كورنيش النيل وشاطىء بحر وفى القناطر الخيرية ،بجوار العيون التى تجحظ بالماء الوفير.

ابتلع ريقه وهو يحدق فى الصور وقد انفرجت أساريره ، وساوره شعور مغاير ليريح ظهره على الكنبة المكسوة بقماش " الكريتون" المزركش، وهو يتأمل صور الجامعة ويدخن سيجارة. بين الكتب أيضا عثر على مظروف كبير يحوى قصاصات من جرائد ومجلات صفراء الورق ، متآكلة الأطراف .

قرأ عنوانا شاحبا " أول فتاة تلعب لعبة الرجال " والصورة لها وهى فى ثياب الرياضة، وعنوان فى صيغته المبتسرة " القبض على امرأة تحرق العلم الإسرائيلى فى معرض الكتاب "، و قصاصة فى جريدة تنشر خبرا عن

إضراب العـــاملات فـى شـركة نـسيج، تقـــودهن موظفـــة. وقـصاصة مـن مجــلة حديثـة وصـورة ملونـة لرجـل أنيـق يقص الـشريط فـى افتتـاح مـشروع اقتصادى ضخم .

كان الرجل يحمل كثيرا من ملامـح ذلك الـشاب الـذى ظـل يرافقها فـى صورها القديمة، مع تغير واضح فى حجم الجسم والكرش والقفا، ونوع النظرة، وهو نفسه رجل الأعمـال الـشـــهير الـذى يقتحم شــاشـــة التليفزيـون ، بوجـه مستفز وبرفقتـه امـرأة تبتـسم ابتـسامة بلهـاء. جذبتـه ابتـسامتها الغامـضة عبـر الصور على الجـــدران وقصاصـــات الجرائد ، وتذكر أنه يراها دائما هكذا ، لا ترافق أحدا، ولا تتحدث إلى أي من الجيران، الأمر الذى سهل عليـه مهمتـه فى دخول الشقة. بعد مزيد من البحث عثر علـى حفنـة أوراق مطبوعـة داخـل مظروف حكومى يحوى. ...

قرار بترقيات لا يحوى اسمها،

وقرار بنقلها إلى أسوان فى أوج الصيف

وآخر للواحات ، وأوراق قضية فصل تعسفى.

تذكر أنه يراها تحمل أوراقا وكتبا ، وكأن بيتها وحياتها مـازالا يتسعان للكثير .

تـذكر أيضا أنـه لـم يشعر تجاهها بـأى تعـاطف، ومـن قبل أيضا لم يـر صورة عبد الناصر على الجدار المواجه، وكل هذا العدد من الساعات المعطلة ونتـائج الحـائط. إحـداها متوقفـة عنـد ٥يونيـة ، وغيرهـا عنـد ١٧ و ١٨ ينـاير وواحدة عند تاريخ اليوم.

تساءل فى نفسه عما ألهاه فلم يـر صـورة عبد النـاصـر، وكـل الساعات المعطلة والنتائج من قبل ، وتذكر سنوات تعليمـه ، وسـهره الليـالى فـى الشرفة للمذاكرة، و" قلة "الجيران التى تلقى بظلها على الجدار المقابل مثل فتاة جميلة،

كما تذكر أيام الجامعة، والاعتصام داخل الأسوار، ورائحة القنابل المسيلة للدموع ، ووجه أبيه العامل الذى علمه ثم مات وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

شعر براحة غريبة وكأنه فى بيت امرأة قريبة منه ، ثم تحرك ليعد كوبا من الشاى.

وحين نظر إلى ساعة الحائط التى لم تتوقف حتى الآن ، أسرع مهرولا نحو غرفة النوم، ليمسح بفوطة مبلولة بذاءة الكلمات على مرآة التسريحة، والأشكال القبيحة. بعدها أعاد الشقة إلى حالتها الأولى ، وهو يتوخى مزيدا من الحيطة والحذر مع تذكارات المرأة الوحيدة.

بعد أن شرب الشاى ودخن سيجارة شمّر عن ساعديه، مستعيدا معلوماته لإصلاح ما فسد من سباكة.

ظل الصدام

وكأن الدنيا واقفة هناك، من دون أن تدور الشمس حول الأرض.

كنت أشعر أنني وحيدة، والضباب الكثيف مثل صندوق دخاني أو حصار لا يمكنني الفكاك منه، والله في عليائه يتدبر وجوده الباهر، فتغزوني الرغبة في الوثوق كثيرا بالحركة والسكون أو الجري لمسافات بعيدة.

أمتار قليلة تتسع بالرؤية، تبين من خلالها مساحة من أرض الشارع والبيوت وقليل من الباعة والمارة. كل يعرف طريقه في السير والثبات.

وفي لحظة رأيتها تخترق مثلي الضباب، شعرها القصير الناحل والمجعد ورقبتها الطويلة مثل أهداف واضحة، وفي مشيتها وارتفاع رأسها إلى أعلى زهو وعشق غريب. تسير مثل غزالة ولا تكترث كثيرا بما خلفها. بعد قليل أدركت أنها تشبهني على نحو ما وهي تشق الضباب الكثيف، وكأنها تود لو تلحق بالشمس، تناديها أو تأتي بها. حين اقتربت منها سمعتها تدندن بصوت شجي، أغنية لم أسمعها من قبل، وبعض المارة والباعة يتابعونها دون حماس، بعضهم ينفخ قشر اللب في الهواء، والآخر يصب عليها اللعنات.

رغم هذا شعرت بكثير من البهجة وأنا أسير وحدي، أترك شعري القصير للضباب، وأصغي بشغف لأغنية المرأة.

ماذا فعلت بحياتي وماذا ينتظرني و لماذا جئت إلى الدنيا، أسئلة ميتافيزيقية، عليّ تجاوزها مع كلمات الأغنية، المرأة جميلة على نحو ما، أو هكذا أراها، ربما لأنها تغني أغنية ذات معاني مغاير، تسري في صمت

مثل سائل سحرى، ربما يكون من شأنه أن يوسع صناديق الضباب والدخان التى نسير بداخلها، وكأنها توابيت بيضاء لا تجمع شتاتا.

"جيدا تسمعت للأغنية وكلماتها ومعانيها ...

الآن لا أستطيع احتمال الصمت

والجميع يأكلون أغنيتى

كما تأكل البغال والحمير

التبن و البرسيم

لن أقول تعالى معى

نسكن بلاد القمر

أو أعشاش العصافير

فوق فروع الشجر

وأنا وأنت لا نملك بيتا على الأرض....."

فى غمرة اجتياز الحاجز الضبابى بدت الأغنية مثل ترنيمات ملائكية، وفى زجاج واجهات البوتيكات التى مسح عنها الضباب جيدا، والمتراصة ببشر من جبس، والعطور و الماكياج كنت أرى المرأة تشبهنى على نحو ما. شيء جميل أن ترى أحدا يشبهك فى هذا العالم ، حتى لو كان قردا، ربما تشعر بأنك لست وحدك.

وللمرة الأولى أدرك أنه لابد و أن أغنى، وأن يتصاعد صوتى بالغناء، رغم أننى لم أختبر أحبالى الصوتية من قبل . إلا أننى جربت الأغنية .....

"لن أقول تعالى معى

نسكن بلاد القمر

وأنا وأنت لا نملك بيتا على الأرض"

كم تمنيت لو يأتى الرجال و النساء ليتغنوا معنا بالأغنية، ربما نفرح من قلوبنا، لأن نثار الشمس سوف يتساقط أمامنا مثل حبات الذهب.

فى ظل التصاعد المهيب للأغنية لم يكن منظورا أن تسكت المرأة. غير أنها توقفت، فقد قاطعها رجل نحيل القامة، يبتسم ابتسامات غامضة ويخبرها فى هدوء محايد أن بقعة دم كبيرة فوق مؤخرتها..

لم يكد الرجل يكمل جملته حتى أدارت المرأة - وفى هلع - رأسها إلى الخلف، وهى تتحسس جسدها، بعدها تهاوت فى ظل مبنى قديم، تتلوى عليه الشروخ.

لم أكن قد عرفت اسمها أو عنوانها، ولكن ماذا تعنى الأسماء أو العناوين.

بعدها صرت أعى الناس و الأشياء على نحو مختلف، فأدركت أنه يجب ألا أتوقف عن الغناء وقد تبدد الضباب بعض الشيء.

فى البدء رحت أنفض عن ثيابى الظلال المكسورة و المرتعشة للناس والبيوت والأشجار، وأنا أتجاوز تلك النظرة الحزينة فى عينى المرأة، التى كانت تغنى ثم تلهت فى بقعة دمها،و صوت من داخلى ينادينى بأن أفعل ما أستطيع، وكأننى فى تلك اللحظة أقرر حياتى أو موتى، لكننى قررت أن أنظر إلى الجهة الأخرى ، وفى تصرف سريع سأمشى دون ركض .

وفى لحظة سمعت صوتا يردد نفس الأغنية. لم يكن الصوت جميلا تماما، غير أنه كان قويا واثقا. كان الصوت لامرأة تغنى فى حماس بديع، غير عابئة بالأصوات الكثيرة التى شاعت واستشرت هنا وهناك للمارة والباعة والحواة والدجالين فجمعوا الناس حولهم.

كنت أراها وثوبها الفضفاض يمنحها حرية للحركة والتنفس والسير والغناء، وشعرها الطويل مرفوع إلى أعلى، ومدلى مثل ذيل حصان جامح، ووقع خطواتها على الأرض يردد مع رفيف الثوب كلمات الأغنية ....

"لم أعد أستطيع احتمال الصمت

كما لم أعد أستطيع احتمال الخوف

وكل هذه البغال و الحمير يأكلون أغنيتى

كما يأكلون التبن و البرسـيم...."

بين الخطوط الواهية للضباب والدخان كانت المرأة تغنى وكأنها تصلى، أو تؤدى طقسا مقدسا وسط عبق البخور وجليل الصمت، غير عابئة بعيون المارة ولعنات الحواة والباعة المتجولين، وكأنهم يخشون الإصغاء لما يقرره الصوت الجميل..

مثل طوق نجاة تلقفت أذناى الأغنية وكأنها تشد خيطا لليقين. اقتربت من المرأة وأخبرتها بأننى مثلها ، عندى نفس الرغبة فى الغناء ، ثم رحت أحثها على ألا تتوقف مهما حدث. وسرا كنت أحدث نفسى ..."..لن يحدث أكثر مما حدث، رأيت كل العفاريت، ولن تخيفنى عفاريت أخرى.."

راق لها حماسى فربتت على كتفى وتماسكنا ،ثم سرنا وكأننا نرقص رقصة الوجود على أرض العدم، رغبة فى انتزاع الحياة، بعدها أدركنا الفرح بالغناء الذى عم الشارع رغم ضجيج الباعة و المارة و الحواة . كنا نغنى أغنيتها الجميلة، ونحن نوقن أنه حتما سوف يأتينا الصدى. لوح البعض بإشارات البدء، إلا أن رجلا عابسا جهما، اقترب منا فجأة.

والآن لا يجب أن أتشكى يأس الوجود، بعد أن رأيتها تتخاذل، وتخذلنى وتتهاوى وتهوى على الرصيف مثل قطة تلعق جرحها، وبقايا الأغنية مثل صدى، ينسحب شيئا فشيئا، تاركا الفضاء لأصوات الزحام والضجيج والحواة

والمارة والباعة والدجالين، الذين بدوا وكأنهم يتابعون المرأة بنظرات شامتة، وأنا وحدى أكابد مطابقة الصوت بالصدى، حتى يعود غنائى وغناؤها ، كغناء الأرض والزرع والفضاء الفسيح.

كانت حوافز الخمول والكسل والوهن والضجر تغزونى مثل جيوش النمل. ولم أعد أرى المرأة، وجحافل الزحام المهين تدفعنى بقسوة للتباعد لأسمع غناء كسخرية، كتشنج، أو يتعهد الصمت بالحياة للأبد. ورأيت المرأة حاضنة لجرحها مثل سر، مثل عار، تتكتمه وتتوارى.

مع الوقت قلت لنفسى فلأجرب صوتي وحيدا بالأغنية، وما إن برقت الفكرة حتى شعرت بقدر من القلق والتوتر، ثم قدر من البهجة، يتسلل مثل صفاء النفس يسرى فى الروح و الدم.

كان خـــوفى عتيقـــا، يترصـــدنى مثل قدر، إحدى نتائج الفـــقر، وسوء التغذية، وسطوة أبى مثل الخرافة على عقل أمى وعقولنا. غير أننى استجمعت نبتًا صغيرًا لشـــجاعة شحـــيحة ، وكانت هناك ضرورة لذلك، ورحت أغنى ...

" الآن لا أستطيع احتمال الخوف

وموسيقى البراءة محض نشاز

الآن بمقدورى اختراق الصمت

لن أقول تعالى معى .. نسكن بلاد القمر ...

أو فروع الشجر ..

هيا نصحو وندعهم يتثاءبون ....

و لا تخف فهناك قمـــر ورب"

كم هو ثقيل وصعب، البدء، هذا الجديد الغريب والمدهش على نحو ما. تملكنى ميل غريب لمواصلة الغناء، وأنا أسمع صوتى شجيا وجنونا ، ناقوس ينذر بالحياة . لحن جهور لا يناشز الأصوات والوجوه والأسماء والعناوين . وفى موسيقاى بعض من صمت جميل، فأنادى من أعرفه ومن لا أعرفه، من أحبه ومن لا أحبه؛ تمهيدا لعالم جديد جميل.

أفرطت فى إيلام نفسى لأنها لم تجرب الغناء من قبل ، وفى لحظة اقترب رجل أسمر ،طيب، رقيق، يشبه على نحو ما، رجل أحلامى ...

... فى الحلم يشاركنى الحديث و الحياة، يملأ بيتى بالحب والدفء كل شتاء....

غير أن الرجل راح مثل كل الرجال، يخبرنى أن بقعة دم على ثوبى...

لم أدهش ولم أحزن فقد ساندتنى خبرات الدم السابقة، بقع دم القدر، والمقدر، والمكتوب والقسمة والنصيب والحظ والطالع وميل البخت وسقوط الأحلام والأمنيات والأغنيات والمغنيات. غير أن الرجل بدا مستغربا، ومندهشا لأننى أنزع عن جسدى الثوب الملوث بالدم، وأمضى عارية، وعلى شفتي، مازالت كلمات الأغنية ترنيمة للشياطين والملائكة، تأخذ من أنفاسى وحماسى لتتصاعد.

"الآن غادرني الخوف وبلاهة البراءة

فقد تكاثرت الحمير و البغـــال

وغادرت ثوب الدم"

وكأن الذى صار حدث أثناء النوم، شعرت من خلاله بأننى يقظة تماما، حالة من البهجة المختارة، لم أسمح خلالها للذباب أن يقترب، وحين اقتربت ذبابة وراحت تصول وتجول على يدى تغلبت على عاداتى فى الانزعاج من الكائنات التافهة، وشعرت بأننى قادرة على طرد كل الأفكار السيئة من ذهنى،

وبدأت أركز بصرى على الخطوات الدقيقة للذبابة، وهي تسير على جلدى، وقد تحولت الرؤيا إلى أمر ممتع، وبدأت أشعر بالراحة، على الرغم من أننى أفرطت فى إيلام نفسى؛ لأنها لم تجرب الغناء عارية، ثم شعرت بأننى أمتلىء بسحر خاص، و الجميع ينفضون عنى، وتذكرت مقولة قرأتها ذات يوم

" كل الرجال سوف ينفضون عنك،

فلن تروقهم أغنيتك ما لم تبادليهم الغرام "

لم أعبأ كثيرا بألاعيب الباعة والمارة والحواة وواصلت الأغنية .

نساء الصمت

بدت الريح آخر الشتاء مثل طلقات الرصاص، وكان الطلاق قد حدث ورغم هذا مازالت لا تضمر شرا للشتاء والبشر، فصارت تعمل وتفرح وتترك شعرها للريح وتغنى.

فى الصباح تخرج إلى عملها، وبين شفتيها بقايا أغنية محمد قنديل " يا حلو صبح يا حلو طل " ..قبل ذلك تلقى حقيبتها جانبا وتسقى نباتات الشرفة والباسطة وهى تغنى، ثم تنزل على الدرج، وتحطم أضلاع الكسل وهى تغنى .

وحين تسمعها بقية الجارات، عبر الجدران الصماء والأبواب الموصدة بإحكام، وشخير الأزواج، ذلك الذى يلتهم البدايات الطازجة للصباح. كن يسمعنها عبر رائحة الطبيخ المغلى وزعيق الأزواج، ذلك الذى يلتهم هدأة ما بعد الظهيرة. ويسمعنها مثل قطيع مشتت كل مساء، وظلال العمارات مثل وحوش تتأهب للانقضاض.

وعبر نوافذ السيارات المفتوحة بقدر، يرونها وهى تسير وحدها لمسافات طويلة، بحثا عن سيارة أتوبيس، غير أنها تفعل وهى تبدو عاشقة للحياة.

ورغم رائحة البارفان المستورد، التى تظل تفوح بين جنبات السلم بعد خروجهن لساعة وأكثر، الغريب أن غناء المرأة الوحيدة حرض عليهن الأزواج والأولاد والبنات والخادمات الذين راحوا جميعا ينصتون كل صباح فى شرفات المطابخ لغناء المرأة الوحيدة. صرن يدركن على نحو ما أنهن البائسات وهى وحدها التى تغنى. فكرت واحدة أن تبذر السلالم بقشر الموز وقت نزولها فى

الصباح، وراحت أخرى تقطع لها النباتات التى تزرعها أمام شقتها بينما فكرت أخرى - على نحو مغاير - أن تجرب مثلها الغناء.

وذات يوم وفى غيبة الأزواج اجتمعن داخل شقة إحداهن ، ورحن يدخّـنّ - فى شراهة - السجائر التى يقتطعنها سرا من علب الأزواج. بعدها تناولن الشاى والقهوة وسيرة المرأة الوحيدة التى تغنى، وكان الدخان قد عبأ سماء الشقة بأشكال رمادية مثل تهويمات وهلاوس بصرية.

حكت إحداهن أنها كانت تغنى كالطير الطليق حتى تزوجت فراح صوتها ينسحب شيئا فشيئا لحساب إيقاع الصمت والجدران والملل.

وحكت ثانية أن زوجها نفسه ظل يشاركها الغناء لوقت طويل بعد الزواج، حتى راح صوتها يتراجع أمام صوته، الذى يمارس به أنشطة صوتية عديدة إلا الغناء. وحكت ثالثة أن الشمس كانت تنعكس على الزجاج والمرايا عبر النوافذ والشرفات وهى تغنى. كانت طبيبة ، وكانت تشعر بالشجن وهى تتحدث مع المرضى وتربّت على أكتافهم وتضمد جروحهم . وحين أصر زوجها ذات شتاء ،على أن تبقى فى البيت، حاولت أكثر من مرة أن تجرب صوتها بالغناء أمام المدفأة الكهربائية، ولا من جدوى.

قاطعتها أخرى وهى توصى الجميع بضرورة تناول شىء من البقدونس، لإزالة رائحة السجائر من الأفواه، ثم رحن يرتشفن الشاى والقهوة ويستعرضن الآراء حول صوت المرأة الوحيدة التى تغنى، مؤكدات أنه لابد من البحث عن واحدة ترى الفنجان جيدا .

قالت واحدة، وكانت تبدو بائسة رغم مظاهر الثراء البادية فى ثياب وبارفان وذهب، أن صوتها جميل على نحو ما،وتتمنى كلما سمعته لو أطالت المرأة من وقت الأغنية. وقالت ثانية، وهى تبذل جهدا فى إخفاء جانب من شخصيتها أن صوت المرأة عادى للغاية، ولا يطرب الآذان، غير أن المرأة

تحسن اختيار اللحن والظرف والكلام؛ ليشعر البعض أنهم فى أمس الحاجة للغناء .

قالت ثالثة وكانت قد درست لفترة لا بأس بها فى إحدى المعاهد الفنية، إن صوتَ المرأة الوحيدة لا يحمل أية جماليات، وربما به بعض النشاز، ثم قالت وكأنها تكتب تقريرا صارم اللهجة " كما أنه يفتقد لهارمونى الصوت فى مخارج الألفاظ . ويفتقد ...و....."

وفى لحظة ارتطام وجيب القلوب وتخبط الصمت والكلام سمعن المرأة التى تغنى، وكانت الأغنية ذات شجن، والصوت يراوح بين اللون والصدى....

" أنا جلبى برج حمام ....هج الحمام منه ... أنا جلبى برج حمام....."

ودون أن يدرين كانت حركة الشفايف فى المرايا والزجاج واضحة تماما، وهن يجربن الصوت فى الغناء "..أنا جلبى... برج حمام ... هج الحمام منه ..."

انتبهت واحدة للرمال الناعمة التى تسحبهن إليها المرأة الوحيدة وأكدت أن أغلبهن كن يغنين قبل الزواج فنهضت فكرة فى رأس إحداهن بتزويج المرأة الوحيدة ولابد من إلقاء رجل فى طريقها ذات صباح..

وبالفعل استدعت إحداهن ابن خال لها كان قد ألقى أحلامه خلفه بعد كثرة المحبطات والميئسات وحين رأى المرأة الوحيدة نازلة على السلم نزل خلفها وتابعها حتى مكان عملها.

وفى حفل الزواج تراصت رؤوس نساء العمارة البائسات والمستشيطات غيظا وغلا من المرأة الوحيدة التى تفسد عليهن الأزواج والأولاد والبنات والخادمات وهاهى لم تعد وحيدة.. وفى مشهد خيالى يتابعنه

بحفاوة بدت المرأة التى لم تعد وحيدة تستيقظ فى الصباح وهى تصرخ وتشاغب زوجها وتشد شعرها وبذلك تكون قد دخلت الحزام الأمنى للعمارة..

لكن على غير المتوقع كانت جارتهن تنهض كل صباح لتعد القهوة وتغنى وتسقى نباتات الشرفة وتغنى وتسقى زرعاتها التى زرعتها أمام الشقة وهى تغنى، وتلا المشهد ما أزعجهن جميعا أن زوجها أيضا نزل معها السلالم وهو يغنى..

المرأة شديدة التميز

هي امــرأة غير كل النســاء الوحيدات فى العمـارة، واللائـى يتـراوحن ما بين عوانس و أرامل ومطلقات. فهى تمـارس تميزا خاصـا غير ذلك الذى يمنحه لها موضعها بالطابق العلوى، فصـار بمقدورها ـ لو شاءت ـ جرح نوافذ وشـرفات الآخـرين. فـضلا عـن أنـهـا كثيـرا مـا تمعـن فـى التأكيـد عبـر الكـلام والإيحاءات أنها ليست وحيدة تماما. وأن رجلا ما على ذمتها أو هى على ذمتـه. تنعم فى رغد أمنه وسلامه رغم غيابه.

ودون حاجة للمزايدة على ما هو سابق أو لاحق، فهى تنقل للأخريـات إحساسا فائقا بالمتعة، إذا ما جاءت سيرته بين أعطـاف الكـلام، ليتـوزع عليهن فيمـا بعـد ـ عنـدما تخلـو علـيهن الـشقق، وينتهـى الإرسـال التليفزيـونى ـ حجـم الحسرة، فيصبح نصيب الواحدة منهن جسيما وفادحا، وحين تصفه وهـى مسبلة العيون راجفة الجفن تقول..:

"وسيم مبتسم كالنهار .... طويل عريض.... يشـبه محمـــود مرسـى أو حسين فهمـى.....رقيق هـادىء كالليل .. وكريم جدا، تنـوء ذراعـاه بأكيـاس الخير....."

وبعد قليل تنحسر على وجهها مساحة البهجـة، عندما تؤكد للأخريـات أنه مشغول بعمله الذى يدر عليـه وعليهـا الكثيـر. وفـى حلوق الأخريـات تتمدد مساحة الحسرة، ويصير المذاق مثل الحنظل، حين تتواطأ تلك المرأة مع الرجل الوحيد فى العمارة على قمع هذه ومراقبة تلك وحصار التى. ذلك الرجل الذى نصب نفسه حامى حمى العمـارة، يبدو قصير القامـة، ويرتـدى جلبابـا حريريـا،

" لا يخفي تماما مواضع مخزية من جسده، بل يسير فى زهو وهو يمضى وقته بين الوظيفة "الميري"، ورقابة النساء الوحيدات.

كثيرا ما يؤكد عبر الكلام والنظرات والتلميح دون التصريح، أن للمرأة المتزوجة وحدها، الحق فى أن يزورها أى عدد من الرجال، أقرباء كانوا أو أصدقاء. وبإمكانها أيضا استدعاء ما شاء لها من عمال السباكة والنجارة والكهرباء، دون أن يضطرها ذلك لترك باب الشقة مفتوحا، إبداءً لحسن النية، وبمقدورها كذلك مد جسور الألفة بينها وبين عائلته والعائلات فى العمارات المجاورة.

كان كلامه يبدو مثل قوائم الأسعار ولائحة الجزاءات وقانون العقوبات، غير أن أصداء القوائم واللوائح والقوانين كان فادحا. فالنساء الوحيدات صرن يمتثلن فى خنوع وإذعان لميل البخت والمقدر والمكتوب، والقسمة والنصيب، وتعليمات رجل العمارة، خوفا من تعكير صفو البال والسمعة، فرحن ينفقن نصف الحياة فى متابعة الناس عبر النوافذ والشرفات وشاشة التليفزيون والعيون السحرية للأبواب الموصدة، ومتابعة الطيور الجارحة الراكضة فى السماء وفوق العمارة، فتنبت فى النصف الأخر أعشاب السأم ومرارة الحنظل، فتبدو كل واحدة وكأن نسائم الصيف لم تلامس وجهها وجسدها أو روحها. الغريب أنهن صرن يفرطن فى الإنصات للمرأة ساكنة الطابق الأعلى فى العمارة، وهى تبالغ فى الحديث عن رجلها ومشاكل عمله، التى تستغرقه تماما، فلا يأتيها إلا يوم الخميس الأول من كل شهر. كانت هى الوحيدة التى تزور الجيران ولا يخشى منها عليهن..

فى يوم الميعاد تتربص النساء الوحيدات، خلف شيش النوافذ والشرفات، وخلف العيون السحرية، يرقبن فى أناة وصبر، أن يدخل العمارة، أو يصعد السلالم رجل كالذى تصفه تلك المرأة، عبر إحساس مفعم بالثقة والبهجة ....

" وسيم مبتسم كالنهار ...طويل عريض يشبه محمود مرسى أو حسين فهمى ... "

ولا يرون. فيستسلمن فى يأس لرتابة مسلسلات التليفزيون وكوابيس الليل، تلك التى تداهم رؤوسهن كل مساء. وذلك على الرغم من أنهن يعملن، غير أن عيون الموظفين والموظفات للنساء الوحيدات كانت تبدوا لهن حصارا من نوع آخر.

حكت إحداهن أنها استيقظت ذات صباح لتمد يديها خارج الفراش، فلم تجد جدران الشقة، وحينئذ حسبت أنه النمل، فعادت إلى النوم. ثم صارت تنام كثيرا، ربما أكثر مما تأكل أو تتنفس.

وحكت ثانية أنها ذات مساء رأت فيما يرى النائم أنها ماتت، وقامت بنفسها بإعداد الكفن واستخراج تصريح الدفن والصلاة على الميتة، وشاركت فى الجنازة، ثم الجلوس لتقبل واجب العزاء، والحديث مع المعزيات عن المغامرات العاطفية للميتة. وحين استيقظت من الحلم أحست بنفسها مهدودة الحيل، بعدها صارت تبدو عازفة عن الحياة.

وحكت ثالثة أنها كثيرا ما فكرت أنه بمقدورها أن تلج سطح العمارة، لتنهى بسلام وسرعة حياتها التعسة. وكن مازلن يترقبن أن يدخل العمارة فى الخميس الأول من كل شهر رجل كالنهار،طويل عريض ، يشبه محمود مرسى أو حسين فهمى .....

غير أن المرأة ساكنة الطابق الأعلى من العمارة كانت تفاجئهن فى يوم الجمعة الأول من كل شهر بجلباب أبيض وثياب داخلية رجالى، منشورة فوق حبال الغسيل المشدودة بإحكام فى شرفتها، وتبدو الثياب منفوخة بالهواء، ترفرف يمينا ويسارا.

كان المشهد يتكرر بتوالى الشهور والتهامها للعمر....

وفى كل مرة تتربص النساء الوحيدات بالمرأة شديدة الثقة والثبات، والحياة تمنحها ألفة وبهجة وائتناسًا بالآخرين، يرقبن رجلا يشبه حسين فهمى أو محمود يس أو محمود المليجى، يدخل العمارة فى الخميس الأول من كل شهر، فلا يرون إلا جلبابا أبيض وثيابا داخلية رجالى، منشورة على حبال المرأة فى صبيحة يوم الجمعة. وكانت الثياب وهى منفوخة بالهواء تلعب برؤوسهن.

غير أن واحدة منهن، لم تترك رأسها لأعشاب الملل وسأم الوقت وخفافيش الكآبة، وكانت قد اكتسبت عبر متابعتها الاضطرارية لبرامج عالم الحيوان وعالم البحار وعالم المرأة مهارات خاصة، تمكنها من القدرة على البقاء، فظلت تتربص بحبال غسيل المرأة حتى أدركت ذات صباح ، أنها ترى نفس البقعة ونفس الفتق على بطن ومؤخرة الجلباب المنشور منذ عام تقريبا.

بعدها صارت جميع الشرفات وحبال غسيل النساء الوحيدات تزهو، وذلك طوال الشهر بثياب رجالى منفوخة بالهواء.

ضـــــلع أعـــــوج

اليوم يتفكك الحصار. تتزاحم فى رأسى أشياء كثيرة .....

" أن آكل ثمارا نصف ناضجة، أو رغيفا دون شوائب، وأن أشرب ماء نصف بارد، و أقبّل وجه أمى فى صورتها على الجدار، و الشريط الأسود المعوج، ثم أذهب لأقتل أبى، الذى كان سببا غير مباشر فى موتها ، حين بدت مداهمة أمراض السكر و الضغط و الاكتئاب و عدم التكيف أسبابا مباشرة، ثم أسافر لأتوارى فى بلاد بعيدة. قد يمنحنى هذا فرصة رائعة للحب والزواج من رجل حنون، أذوب - ليس تماما - بين شفتيه كقطعة سكر، وأنجب طفلة جميلة تشبهنى، وأطبخ نصف كيلو اللحم الذى أهدتنى إياه صديقة لى مع كيلو عسل نحل، وكتاب لكاتبة قيل عنها إنها غير أخلاقية، رغم أنها تكتب عن الفقر وأزمة الإسكان وضياع الحب حتى على كورنيش النيل، كما تكتب عن بيع القطاع العام وعالم النساء الوحيدات...، وأن أمثل دورا أحبه، وأبكى بين جوانح إنسان لا يكرهنى تماما، وأن أعود طفلة، تتسابق واليتامى فى السير، فى أناة وحذر فوق حواف نوافذ ملجأ الأيتام .

اليوم تحديدا أشعر أن صورة ابنة أخى تشبهنى إلى حد كبير، أراها شبيهة بالألق ، بالوهج، بالجنون، بالولع بكل ما هو حقيقى. ظللت مشدودة لنباتات الظل التى تتصاعد على الجدران البيضاء ، تشكل انسجامها مع الأثاث القليل والأوانى الفخارية ، و أغنية نوبية ، تنبعث من جهاز الكاسيت

" أنا جلبى برج حمام .. هج الحمام منه "

مسحت عن الصورة غبارها، وأنا أتذكر شكوى الصغيرة من اغترابها. لا يحضرنى من أيام طفولتى سوى واقعة صغيرة ذات مدلول شديد

الحزن والبراءة، وتمثل لى أول نداء وجهه إليّ طائر صغير غريب ، كان يتقافز على نافذتى.

كنت قد أعددت تنظيف البيت وترتيبه ورويت ظمأ الصبارات ، ومسحت عن أوراقها الغبار، ولاطفت قطتى الصغيرة، مانحة إياها حصتها من الحنان اليومى. دبيب أقدامهم فوق السلالم مثل أغنيات أنعشت فى صدرى مشاعر قديمة للبهجة، وحين فتحت الباب راحوا يتدافعون نحوى وأنا أتلقاهم مثل هبات وعطايا ربانية.

نوه أخى - اعتذارا - عن تخلف زوجته، تلك التى رأيتها لا تبارح السيارة، وهى تقاوم دهشتها برحابة الخلاء الممتد بين العمارات، فراحت تقتنص الفرصة للتدريب على القيادة. طمأنت أخى بأننى أعرفها جيدا ، لكننى تعجبت لتلك الديمقراطية التى تنعم فى رغدها زوجته، وتدافعت نحو مخيلتى، أيام كان يسوقنا أمامه كالنعاج، نحو الحجرة الداخلية فى بيتنا القديم؛ لأن صديقا له جاء فجأة. كنت أؤكد له، ولم يكن لذلك أية جدوى، أن مثل صديقه هذا، وغيره كثيرون، نراهم ويروننا بمدرجات الجامعة وفى الشارع والأتوبيس وعلى درج البيت ، كائنات أليفة ومستأنسة.

بعدها كنت أرفع عينيّ إلى صور أبى وهى تحتل مساحات من جدران بيتنا ورؤوسنا، ومن دون أن يكون هناك ضرورة لأكمل المثل الشعبى" من شابه أباه ...." كان معهم يعارض فكرة استقلالى بعد الانفصال، مناديا بضرورة العودة إلى حظيرة أبى أو أخى الأصغر، أو حظيرته هو، وكنت أرى أنه من الأفضل تجنب حديث الحظائر هذا، وخاصة أننى كنت أبدو لهم و كأننى أدعو لحكومة انفصالية.

تحركت " سارة" بنت أخى فى أرجاء شقتى وهى تبدى استحسانها لذوقى فى إختيار الأثاث، وتوزيع النباتات والزهور واللوحات والكتب والصور العائلية. داهمتنى موهبة الطفلة فى الوصف والتأمل ولباقة التعبير ورهافة

الإحساس بالبشر والمكان والأشياء. أراها مثل شجرة طيبة تنشأ فى تربة من نفتالين.

أبدت " سارة " دهشتها بصورتها التى أعلقها فى بيتى. ومن ملامح وجهها طلت الأسئلة، ثم بدت وكأنها ترى نفسها فى زمن آخر، وفى صورة أبيض وأسود، بعدها جذبت كتابا وراحت تتهجى حروف عنوانه وتقلب صفحاته ......

تصر " سارة " على أن طفولتى مازالت حاضرة، هى أولى البنات والبنين، تماما مثلما كنت أول أفراح أمى ومصائبها، كما حكت ذات مساء، حين تسلمت جدتى " اللفة " وأنا بداخلها، قطعة لحم حمراء، ترفس بساقيها الدنيا الضيقة التى جاءتها دون اختيار. بحثت جدتى عن شيء بين الفخذين، ولما لم تجده، ألقت بي فى وجه أمى.

يحاول أخى التعرف على مفردات بيتى وجدرانى، وكأنه يود لو يتأكد من أن حياتى مرتبة على نحو ما، وكانت "سارة" تتحرك مثل فراشة، وتذكرت أننى فى مثل عمرها كنت أحسبنى كائنا هلاميا، لا يشغل حيزا كبيرا من الحياة. وجه أخى يذكرنى بحكاية مروية على لسان أمى و بعض نساء العائلة......

فى يوم "سبوع" أخى، جاء أبى بالطبل البلدى، و لبس جلبابه الكشمير، وجلست أمى بوجه محايد فوق مرتبة جافة لعريرها ذى الأعمدة، والداير المنقوش بياضه بملائكة وأحصنة تطير وفراشات، وتزاحم الرجال والنساء والأطفال فى البيت، وظلوا يتحركون وأنا أتدافع بجوار سيقانهم، حتى أدركت باب جارتنا الطيبة، فأسكتت بكائى وسيل مخاطى بجزرة حمراء. وحين انتهيت من أكلها كنت قد شعرت بأننى كائن فائض عن الحاجة، فكرهت أبى كرها شديدا، ذلك الذى خص أخى بكل هذه الحفاوة، لا لشيء إلا لأنه يزيد

عنى بقطعة لحم صغيرة، تكمن مثل زوائد جلدية بين فخذيه، وتأنف القطط من أكلها، وربما لتلك المسألة أعزى حبى الشديد للقطط.

عاد أخي يتحدث فى مسألة ضرورة عودتى للحياة تحت رعاية أبى، ونسى أنه منذ لحظات قليلة، أخبرنى بأن أبى نفسه مريض وفى حاجة إلى رعاية. وليس تشفيا تراءى لى الزمن و هو يبدد ما تبقى له من سطوة.

تعبت من حرب الجدل العقيم التى دارت رحاها بيننا. شدنى من رأسى صوت اندفاع المياه من الحنفية، يهدر بقوة، وتعجبت لأنها صارت أكثر غزارة، أعرف أنها ليست صافية تماما . تعللت بأن الطعام على النار، وأنا إلى جواره، غير أننى كنت أتابع الماء، طامحة بأن يصفو قليلا، وحدثت نفسى أن المرأة التى هى أنا، لم تستنفد كل قواها بعد، وقد تعلمت الدرس البليغ حين وضعتها الظروف والمواقف والأيام أمام فاصل زمنى وبعض المعارك ، لينكسر الحد الأدنى من الضعف، وأتساءل، إلى أى مدى يمكننى تجاوز ذلك الميراث القديم من العُقد، فيتحول حلمى إلى كائن حيّ، برأس جميل، وقدمين راسختين.

فى الحقيقة لم أعد مجرد امرأة، فقد صرت إنسانا، طريقا سويا لا يسمح بالانحناء تحت ضوء القمر أو تعامد الشمس. كان أخى ما زال يتأمل أثاث بيتى، الذى جلبت أغلبه من محال بيع القديم، والسجاد المصنوع من قصاقيص القماش وبأيدى بشر. لم يبد إعجابا أو استياء. أكره النظرات والتعبيرات المحايدة.

رحت أعزى نفسى بالظن أنه لم ير البيت كله . أحيانا أشعر بالغبطة لتلك القدرة الهائلة على تجديد الأوهام. تناول المصحف الشريف وراح يرتل منه آيات كريمة، وسط ضجيج أطفاله وصياحهم، وتوهج فى نفسى شعور بالحنين إلى رجل وأطفال، يملأون البيت بالبهجة والشقاوة. رجل أحبه ويحبنى، وأطفال أعلمهم الحب و الحرية، وأؤكد لهم بالقول والفعل، أنهم بشر وليسوا خرافا أو نعاجا.

عـادت " سـارة " تلعـن إحـساسها بـالقلق والاغتـراب فـي بيـت أبيهـا. أطفأت النار دون التأكد من نضج الطعام، وأخذت الطفلة علـى جانـب، ومنحتهـا أذنين مصغيتين. أسرّت إليّ أنها تحلم حلما غريبا، غير أنها تراه جميلا.

تحلم سارة بأننى أمها الحقيقية، ولظروف ما عهدت بتربيتها إلى أخـى وزوجته.

كنـت أستمع للطفلـة وعـضلات قلبـى ترغـب فـى التـدخل، وأنـا أرى ملامح وجهها تنتفض بتعابير الرجاء والألم، وهى تطـالبنى بالدخول فـى الحلـم، واستردادها بعد أن صار لى بيت وجدران. بدت لى تعاسة الطفلة طبيعية علـى نحو ما، وأنا أتذكر عدد المرات التـى أقدمت فيها علـى الانتحـار وأنـا فـى مثل عمرها، ويوحى كل من حولى أننى لست منهم، وأنـه وفقـا لميراثـى الطويل فـى الأفـلام العربيـة و الهنديـة، تـم استبدالى بطريـق الخطـأ وربمـا الـصواب فـى مستشفى حكومى للولادة، ومن قبل تنازعت عليّ القطط والفئران.

كل ما فيّ يأخذ موقعه من الدهشة، ألهذا الحد يتسع خيالك يـا "سـارة". أظنه الزمن الذى يفرّق كثيـرا فـى المغزى والدلالـة لبواكير الدهشة والأسئلة. أوقدت النار تحت الطعام مرة أخرى، وأنا أوصـى الطفلـة بضرورة سماع كـلام الكبار. تدافع بخار الماء، وتذكرت أننى أبدا لـم أكن أستمع لكلام الكبـار، ربمـا لأننى أدركت مبكرا ما ينطوى عليه من أساطير، و مـا سمعته منـه، أدفـع ثمنـه الآن من شبابى و حيويتى.

صـوت أخـى بالآيـات الكريمـة يـصل مـا انقطـع بيننـا، غيـر أن اللغـة المبتورة ما زالت تنتظر موضعها بالاعتراض والثورة. ختم الآيـة فحدثتـه عن علاقتـه بابنتـه، وبـادرنى بالـشكوى مـن فـرط عنادهـا، ورغبتهـا الدائمـة بـالاعتراض علـى مـا نأكـل ونلـبس ونفعـل. وفـى الأيـام الأخيـرة طفـح الكيـل فصـارت تختـار من تزورهم معهم من الأقربـاء والأصـدقاء والجيران.

بدا أن الكلام معه لن يأتي بجديد، ومازالت ذاكرته تحتفظ بالطرق العادية والممهدة والمألوفة فى تربية الأطفال، وبدا لى أنه لا بد من تفادى الصدام المحتوم بيني وبينه. كانت يده الرخوة تبدو فوق المصحف مثل رباط محلول، وابنته ما تزال تحت إبطى مثل نبض دافيء، وتنتفض مثل يمامة. أشفق عليها أن ينتهى حزنها واغترابها إلى جدران صغيرة، بضاحية نائية، تقبع على هامش الدنيا، تداعب القطط والأحلام والفراغ. أخيرا جاءت زوجة أخى ولم يكن أحد يعبأ كثيرا بمجيئها. قبلتنى قبلة معدنية الطعم والملمس، وهى تسأل عن دورة المياه، وقد بدت مثل صبى ميكانيكى بائس.

اكتمل أعضاء وفد الزيارة التى تخيلت أنها ربما تنطوى على قدر من الاقتناع برغبتى فى حياة حرة مستقلة ، تلك التى تبدو لهم معضلة مهينة للعقل والشرائع. لم أعد أعوّل كثيرا على مسألة اقتناعهم من عدمه، غير أن القطيعة كانت شديدة القسوة والإيلام؛ أن أظل هكـــذا منزوعة الجذور، زهــرة صبار لا ترى الماء حتى فى مواسم المطر، غرفة محكمة الغلق، تنتظر بصيصا من ضوء.

لكننى مطالبة - مازلت - أمام نفسى أنه لابد وأن أعيش، لا بقوة الدفع أو القصور الذاتى، ولكن رغبة فى حياة غير مبتذلة، و أن أعيش كامرأة وأدمية. حدثتهم عن عملى الذى أحبه، وصداقاتى التى تدفئنى، وبعض الهوايات التى تعلو بمستوى استمتاعى بالحياة. ثم تحدث أخى - وهو يفتعل العاطفة - عن أبى الذى داهمه المرض، فحدثته بأن زيارة المريض واجبة، ولا ينبغى أن يطالبنى أحد بالمزيد.

غير أن اللحظات التالية مباشرة أفصحت على نحو ما بفحوى الزيارة. زوجة أخي المدللة تطمح فى مزيد من الرفاهة، وهى تخيرنى صراحة بين أن أذهب لأعيش فى حظيرة أبى أو يأتى هو ليعيش معى.

من جديد تناهت إلى أنفى رائحة غير محببة. ترغبنى زوجة أخى ممرضة مجانية لحميها، ذلك الرجل الذى لم يمنحنى شيئا، مثلما منحها رجلا

يحنو على أحلامها. والآن كل منا تأخذ مكانها فى الصراع، وعيناى ولسانى وبقية أعضائى ترغب فى التدخل.

تذكرت أننى أبدا لم أشعر تجاه ذلك الرجل بأدنى عاطفة، وقد طفت فوق سطح ذاكرتى كغرين البحر، تلك الليلة التى قبلنى فيها، وكانت تقريبا المرة الوحيدة التى اقترب منى بحنو بالغ. يومها ضمنى إلى صدره، وربّت على ظهرى، ونهضت دهشتى جدارا بينى وبينه، وظللت أراقبه وأتابعه طول الليل، وقد ملأنى يقين حاد بأنه ليس أبى، وأن آخر يشبهه جاء ليسطو على بيته وزوجته وأولاده. وحين رأيته يغادر الغرفة وددت لو أصرخ بملء حنجرتى، فأستدعى الجيران لنجدتنا، غير أننى تراجعت، فقد بدا لى الرجل أكثر رقة، وأكثر ودا من أبى، وودت لو يستمر فى أداء دوره لآخر العمر.

من الممر الضيق تبدو " سارة " قابعة فى الغرفة الداخلية مثل قطة، تتابع ألبوم صورى وبعض كتب الأطفال التى أشتريها، استدعاء للبراءة البعيدة. زوجة أخى تجفف يديها وساقيها بفوطة وجهى، وهى تتأمل أثاث البيت وجدرانه بنظرات محايدة. أعرف أن بيتى لن يأتى مثل كوخ إذا ما قورن ببيتها، غير أنه الدنيا الرحبة بالنسبة لى.

وددت لو أقول لها إنه ليس لدىّ رجل يغرف من البحر و يلقى عند قدميّ ، لكنه عملى الذى أحبه ، وحده القادر على منحى بعض ما أريد.

وددت لو أحكى لها كيف أقمته قشة قشة مثل عصفورة متعبة ، أرادت أن يكون لها عشا تنأى به عن البوم و الغربان، غير أننى تراجعت وأنا أسمع أخى يردد بصوت خاشع " للذكر مثل حظ الأنثيين " و أنا زاهدة فى نصيبى هذا. نظرت إلى زوجة أخى التى قبعت فى البيت بعد الإنجاب، وقد نالت درجة الدكتوراه فى الهندسة الوراثية، زاعمة أنها تضحى من أجل البيت والزوج والأولاد. وددت لو أنبهها أن طفلتها على أعتاب اكتئاب حاد، غير أننى

تراجعت، فقد كنت أشك كثيرا فى قدراتها على الفهم، واكتفيت بابتسامة ، وأنا أسألها: **" أعجبك البيت ؟ "** ..

ردت فى هدوء لا يخلو من استعلاء :

" معقول .. لكن المدينة بعيدة ، و تخلو من الناس"

لم أعقب وأنا أرى أطفالها يتسابقون في صخب خلف بعضهم فى شرفتى الواسعة، و هى ترعد وتزمجر وهى تنظر إلى زوجها، تستنفر غضبه وعنفه، وهو يرتّل فى صوت هادىء " للذكر مثل حظ الأنثيين ". كنت أرص أطباقى الفخارية على المائدة وهم يتابعوننى فى دهشة، وكأننى أرص آثارا أو حفريات. وفى لحظة أخرى وأنا عائدة من المطبخ رأيت زوجة أخى تخالسنى وتنحنى على الأرض، وفى يدها " مازورة " جلدية، لقياس مساحة الشقة. أعرف أن فضولها سوف يقتلها يوما ما. على الغداء لم يعدم أخى وسائله فى المناورة، فكرر حديث الحظائر، الذى اختلط برائحة الطعام، وتذكرت معاناتى من أجل أن يكون لى بيت، لا تتابعنى فيه عيون أحد، أو يحصى أنفاسى إذا ما أبديت رغبة فى النوم، بعيدا عن فراش الأطفال المبلول.

تساءلت فى نفسي وأنا أراه ينتظر إجابة على مطلبه " هل يمكن لكائن ناقص كما يدّعون حقق بعضا من اكتماله ، ورآه أمامه رأى العين، ولمسه وأحسه وتشممه، أن يتقبل انتقاصه وتجزئته وتشييئه فى مقابل حظائرهم الآمنة؟"

...بدا السؤال طويلا . فى يوم ما على الرغم من أننى لم أتعمد ذلك جئت إلى الدنيا " نتاية " كما قالت أمي وخالتى وعمتى وجدتى ورجال العائلة، ثم أدركت مع الوقت أننى جئت فى عائلة من سادة وعبيد، أسود وقردة ، قطط وفئران . والآن أرى السادة والأسود والقطط يسحقون رأس الصغيرة " سارة"، أراها مثل عصفورة صامدة ، على الرغم من أنها مازالت فى قبضة صيادها،

ترقب الفرصة السانحة لتحلقّ فوق رؤوس الجميع، وتطير بعيدا لتلامس السحب.

عاد أخى بعد تناول طعامه، يرتّل الآيات الكريمة، مرددا بصوت منغم غريب

" للذكر مثل حظ الأنثيين "

أتانى ابنه البدين والذى يحمل ملامح أمه وبلادتها يسألنى سؤالا غريبا ومضحكا ومبكيا........

"بيتك حلو يا عمتى ... صحيح ح يبقى بتاعنا لما تموتى"

كان أخى يردد وينغم الآيات الكريمة وكأنه يبعث لى برسالة ذات دلالة، وزوجته و أطفاله يواصلون التهام الدجاجة، وفى رأسى تتزاحم أشياء كثيرة........

أن آكل ثمارا نصف ناضجة، وأقبّل وجه أمى فى صورتها على الجدار، وأقتل أبى الذى كان سببا مباشرا فى قتل أمى، وأن ....

ولا عـــــزاء

تعلم أن أغلبهم منافقون ومنافقات، يرغبون في نزهة مجانية بثياب الحداد، فرارا من طاحونة العمل الثقيل..

لكنها الأيام تمر... ولا من مفر ...

يكون الحزن في الأيام الأولى هائلا ... ثم وكأنه يخرج من ثقب إبرة...

أيامها خطف عينيها وقلبها و رجفتها..

كان شابا ورقيقا وفاهما، يسبر غور الطرقات، و يطرق كل الأبواب، ويبتكر الأرض و الخطوات.

والآن يدور زوج أخته الكبرى على المعزّيين والمعزّيات بالسجائر، ولا تنقص واحدة. كان جالسا وسط طقس العزاء الثقيل، يبدو مهزوما، وذقنه مزرعة للشوك، وعيناه كأنهما تبحثان في صمت عمن ينزع من حلقه مرارة السنين .

كانت معهم، لم تأت من أجل محاولات جديدة ، رغم أنها تعرف أن بهجة صغيرة من بهجاتها بمقدورها أن تفعل الكثير، ربما اليأس هو الذى ولد لديها تلك الشجاعة، من يزعم أنه ليس فينا من له جانبه الأحمق؟ كانت عيناها العسليتان تلاحقانه بلمعانهما وسؤال وشفقة.

بعد قليل صار الواجب طقسا آليا، وكلمات العزاء تخرج عبر مصمصات الشفاه و حشرجات افتعال الحزن.

" البقية في حياتك ......

شـــــد حيـلك .....

كلنـــا لهـــا ....."

بدا لها مثل حفنة من العظام الهش، بعض الأحلام تغذيها الحماقة.

كانت تراه حين يتحدث مع عامل أو موظف صغـــير، أو يقرأ كتابـا ، أو يكتب مذكرة بمطالب مستحيلة، فتبتسم وهو ينظر إليها فيبدو وكأنه ينهل بنهم من المستقبل .

لم يتزوج و لم ينجب و ليس له بيت كالآخرين سوى بيت قديم للعائلة...

ذات يوم باغته الحب مثل ضوء أو شعاع، ربّـت على قلبه ومسح عرقه وتعب الأيام ، غير أنه تعالى عليه ، ربما طمعا فـى المزيد ... هكذا تـراءى لهـا وللآخرين. وحين التقت به صدفة أخبرها أنه مازال يسمع صـهيل مهرة أصـيلة فى وقع خطواتها، ويرى الليل يفرك غيماتـه القاتمـة، وينثرهـا نجومـا ملونـة فـى عينيها.

يومها تابعته وفى عينيها لغة يخجل منها الكلام.

بعـد أيـام كاشـفها بعجـزه الغريـب عـن أى فعـل، بعـد أن عـصفت بـه الأحزان، فأنسته الحب والبهجة. ورغم هذا ضـمته إلـى صـدرها و ربتـت علـى قلبه، ثم غافلت النجوم والنهر والمـارة وقبـلته. غيـر أن المـسافات، وعلـى غيـر المتوقع ، راحت تمعن فى تجلياتها بينهما. وحين التقت به فى صدفة أخرى قال لها وهو يبدو مثل كهل:

" ليس الطريق كما نشتهى ، صرت مريضـا بالسكر "

ولكى يقلل من مرارة الكلمـات، حدثها فـى مرح كيف أن قبلتهـا رفعت السكر فى دمه، ولذا فهو ممنوع من قبلات أخرى.

بدت وكأنها تتحسس مثل جرح، ما تبقى من الحب، أو كأنها تمد له يدها فيقطعها الظلام . أمر غريب و مروع أن ترى المحبين وقد صاروا خفافيش حزن و أكفان و هياكل يابسة .ربما تبدّت في الأفق عاصفة أطاحت بالأحلام الآمنة، وهي تراه يسلم نفسه للسأم والقلق و بغبغة الأيام . صار يموت موتا بطيئا دون أنين، يدفن نفسه وسط حزنه ودخان ورماد سجائره، تلك التي تحالفت عليه في بيت يشبه القبو المعتم .

دار زوج أخته بفناجين القهوة ولم تنقص إلا واحدا.

رآها ترتشف القهوة وتحاصره بنظراتها. وفي عينيها رأى البدايات البكر مازالت تشتهيه، وتفتح له حضن الرجوع، و تنتفض في ذاكرته مثل مهرة تنفض غبارها.

رغم شحوبها بدت غير الأخريات، صامدة دون ترهل، مازالت تشرب القهوة دون سكر ولم تخلع حلمها القديم. اقتربت منه وشدت على يده

" البقية في حياتك "

في سريره الملاصق لمكتبته والنافذة كان يبدأ يومه وينتهي . حلم كثيرا حتى في يقظته ، بينما الدنيا والأيام تمر أمامه وكأنها مجرد صدفة. صلب طوله وسار نحو الداخل، وتذكر رائحة عرقه الذي تخمر في فراشه مثل أحلامه. غاب كثيرا ولم يعد، فتساحب المعزّون والمعزيات خلف بعضهم. أما هي فقد بدا لها الطقس شديد الصعوبة و هي تسمع الجميع يشدّون على يد زوج أخته

" شد حيلك .. البقية .."

ملأت بيته بنظراتها فأدركت عبث المحاولة الأخيرة، و تذكرت أن الأنقاض كيان متحركٌ، لا تنهض عليه الأحلام....

كان مختبئا فى حجرته المظلمة، والمختنقة برائحة رماد السجائر وانكسارات العمر..

يمد يده للضوء عبر الشيش المغلق ، فيقطعها الظلام.

كان يسمعهم يرددون عبر الممر الضيق و الجدار

" شد حيلك ... البقيـــ ....."

ظلت الكلمات تتردد فى أفق الحجرة مثل الصدى ، و هو يتابعهم من خلف شيش النافذة ..

رؤوسهم المخفضة تمر أسفل عينيه مثل سنوات عمره..

رآهم فى ثياب العزاء أغربة وحِدَّآت ، حطت فوق رأسه للحظات ثم طارت.

لم يكن النهار فى أوله

هى دائما رقابة النفس والآخرين والسأم وعتمة السماء وتعاقب الأيام. غير أن الأيام الأخيرة مرت ببهجة مذهلة ، بعد ذلك اليوم الجميل . وكانت تراكمات الحزن قد بدت فى آخر تجلياتها مثل آثار حروق قديمة .

أذهلته مبادرتها الأولى حين قدمت إليه زهرة ،فارتجف قائلا : "المفروض ..."

قاطعته فى ود : "لا تقل المفروض .. من يستطيع أن يقدم شيئا للآخر فليفعل دون تردد" ، بعدها أسفرت اللحظات عن حلاوة مختلفة لطعم الحياة، وارتباك النبض فى ثنايا الأصابع.

فى اليوم المشهود ، كتلك الأيام التى تشهد الثورات والانقلابات الكبرى ، كاشفها بأن لحظة الحب الجميل أشبه بقطار ، كان يجرى دون أن ينتبه إلى اختراع جديد اسمه المحطات ، ثم توقف فجأة فى مدينة عامرة بالبشر والدفء. وحين تحدثا عن المرارات السابقة ألقى كل منهما بأثقاله فى البحر. بقى شىء صغير فى علبة قطيفة شاحبة ، يبدو مثل أطلال المدن القديمة . لم يكن إلا خاتم الزواج السابق. حدثها عن كوابيسه الماضية ، تلك التى كانت تحوّم فيها الغربان والصقور والبوم . ثم وكأنها تكمل الكابوس الذى بدأ حكايته، حدثته عن الطيور الجارحة التى تقبض بمناقيرها على رقاب الهداهد واليمام والعصافير. تركا حديث الخاتمين، وقررا أن يتحدثا عن الماضى باعتباره كالتاريخ الذى لا يجب إنكاره، أو شىء من الدروس المستفادة. بعدها امتد الطريق لخطواتهما رحبا واسعا، ثم صار النهر رفيقا نبيلا ، تصافحهما مياهه بزهوها الشمسى، ورذاذ الماء يرطب وجهيهما ، ويمسح عن الشوارع والأشجار والبيوت، الغبار الذى خلفه الشتاء الحزين.

وذات نهار ربيعى قال لها " يجب أن نبدأ وبأقصى سرعة حياة مختلفة " ثم بدا الخاتمان وكأنهما لا يستجيبان لشعاع الشمس . نظر إليهما وقال :

" سنلقى بهما فى النهر " ردت فى رومانسية شديدة "أخشى لو ألقيناهما فى النهر، أن يطفوا قرب الطرف الآخر ، فيصيبا غيرنا بتعاستنا الماضية. سنلقى بهما فى النار ، فينصهران و يصيران رمادا " ...

و حين تراءى فى عينيه السؤال وهو مشدود بلهفة إلى رومانسيتها المدهشة أجابته بواقعية شديدة :

" نبيعهما و نشترى غيرهما أكثر مواءمة لإصبعينا، وأكثر بريقا ، ليسا ضيقين، وليس لهما حواف حادة جارحة ، " ثم أردفت تأكيدا " كانت دبلتى السابقة واسعة ، حتى أننى كنت أشعر بأنها أبدا لم تكن لى".

كانا قد تلاقيا ذات مساء وسط حفل زفاف إحدى الصديقات ، وسرعان ما تواصلت بينهما لغة الكلام والصمت. قبل أن تقابله ظلت تبحث بين نسيج الزحام عن صديقة جاءت إلى الحفل وحيدة، بلا رجل تتأبط ذراعه، أو أطفال يشدونها من طرف فستانها. وفجأة رأته مقبلا عليها مثل الفرح، يحمل كأسين من عصير البرتقال، و يمعن دون مقدمات فى شرح فوائد البرتقال ، ثم سرعان ما تعالت ضحكاتهما، تعلن عن وجودهما الخاص.

حدثها عن عمله واسمه وحالته الاجتماعية، فابتسمت وهى تخبره أن تلك بيانات بطاقته الشخصية، وتذكرت أنها حين تزوجت لم تكن تعرف عن زوجها أكثر من بيانات بطاقته الشخصية وكثير من العتمة، ثم أوحت إليه برغبتها فى مزيد من الضوء. ورغم جرأتها التى كثيرا ما تحاول انتزاعها من جذور تراثها الثقيل من الخجل والتردد، شعرت أنها امرأة تقليدية على نحو ما . تلاقيا عند لقب" مطلق " مع استحواذ أحدهما على تاء التأنيث،

فزعم لها بأنه يمكن تجاوز ضجيج الحفل وصخبه تحت تكعيبة العنب في الحديقة الغربية . صدقت زعمه وهي تحدثه عن ولعها الشديد بالزهور والنباتات والأشجار.

قالت في نفسها "هكذا أنا رومانسية بشكل فاضح " ، بعدها أفاضا في الحديث عن زراعة الزهور و الصبار ، وما لديها من قدرة فائقة على الصمود طويلا في مواجهة القفر والجدب و العطش . ثم حدثها عن نوع من النباتات يعيش لفترات طويلة عطشا ، لكنه حين يجد الماء لا يرتوي أبدا.

كانت تحدق في عينيه وهي تؤكد لنفسها أن العيون هي البوابات الأولى لقلوب البشر ، وهم يبدون مثل سراديب مغلقة. حدثته عن معلوماتها المتواضعة في مجال النباتات ، وعن نوع من الزهور لا يمكن زراعته في أوان صغيرة ، إذ إن له جذورا ترغب في أرض رحبة عميقة . وفجأة ارتفع صوت لإحدى عجائز الفرح وهي تشير إلى عروس لابنها، من بين المدعوات صغيرات السن ، وابنها البائس يذعن لاختيار أمه مرغما.

بعد أيام وأسابيع وشهور تأكد لكل منهما أن اختيارهما صائب هذه المرة ، فقد صار يوقن على نحو ما أنها امرأة لطيفة المعشر، وكذلك هي؛ فقد صارت تدرك أنه ليس كئيبا ، و لا يحمل مراراته السابقة مثل نتوء بارز على ظهره ، فضلا عن تلك اللغة التي تنساب بينهما مثل نهر يتدفق عبر حوار دائم ، لا يقطعه إلا صوت بائع متجول أو بائع للفل .ثم يتواصل الحوار ليحلق بهما في آفاق واسعة، منها الفن والسياسة والسينما والحياة الاجتماعية للنباتات و الطيور و الزهور.

كانت تخشى وكذلك هو من الصمت الذي يطبق على الأنفاس ، فتنقطع بهما لغة الكلام و الصمت ولغات أخرى.

كان النهار مثل وهج، يتناثر فوق الوجوه والبيوت والمحال. وحيّ الصاغة يمور بحركة نشطة لبائعي الفل، وباعة البخور والعطور والمارة،

والسائحين الذين يتوقفون عند كل شىء بالسؤال و الدهشة، ثم هوس التقاط الصور .

كانا يدخلان لأحد محال الصاغة ويسألان فى صوت واحد " تشترى ذهب ؟ " ، وبعد قليل يسخر الصائغ فى أعماقه عندما يرى خاتمين صغيرين، لا تهتز لهما كثيرا كفتا الميزان الحساس.

همست له " يجب أن نأخذ حذرنا ، فلا يجب أن يبخسنا حقنا " فإذا به يربّت على كتفها، وقد تسربت إليه عدوى الرومانسية فيقول .....

" لو أردنا أن نبيع الماضى ، فلنبعه لأول مشتر ، ولو بأبخس الأثمان" ... يومها داهمها شعور غريب بأن لديها رغبة مجنونة فى تقبيله أمام الصائغ وصبيه النحيل والقطتين القابعتين فى ركن قصيّ من المحل، وتطلان عليها بعيون لامعة.

وفى رحلة البحث عن خاتمين مختلفين لزواجهما، أخبرها أن خاتمه السابق كان ضيقا على نحو ظل لسنوات يضغط على إصبعه وأعصابه. كما تحدثت أن خاتمها السابق كان له حواف حادة ، وما تزال آثارها حول إصبعها تبدو واضحة ، ثم لفت انتباهها إلى زرقة ثابتة حول إصبعه، تبدو وكأنها وشم . صمت قليلا ثم امتزج الصمتان . بعدها راحا يؤكدان لبعضهما على ضرورة الاختيار الحكيم هذه المرة.

كان باعة الذهب وصبيانهم يقبعون فى ملل أمام المحال ، أو يتابعون بعيون متشوقة الرائح والغادى ، وليس من حركة فى الشوارع والحارات تدل على رواج حقيقى. كان البائع منهم يبتسم لمرآهما، ثم سرعان ما تنحسر ابتسامته حين يعلم أنهما لا يرغبان إلا فى شراء خاتمين فقط، وبمواصفات شديدة الدقة، لهما بريق مختلف، مبرومان بشكل يضمن عدم إحداث خدوش أو جروح، غير واسعين بشكل يضمن ثباتا نسبيا أمام الأيام والزمن ، وغير ضيقين بشكل يضمن عدم الضغط على الجلد والأعصاب.

بدا فى عيون الصاغة أنهما يبحثان عن المستحيل، إذ قال أحدهم فى صراحة وهو يلم لوحاته القطيفية، والمتراص عليها خواتم كثيرة " أنتما تبحثان عن لبن العصفور " ....

ثم سارا وهما يرددان في صوت واحد منغم " وحتما سنجده ". بعدها سمعته يقول :

" شيء رائع ، أن نتفق أن للعصفور لبنا ثم نبحث عنه ".

تأبطت ذراعه المشدودة ، ودعت المحال تتوالى أمامهما فى حركة بانورامية، بواجهاتها الزجاجية، ولوحاتها القطيفية والخواتم الذهبية ذات البريق العادى، والمواصفات العادية ، كما توالت مصمصات شفاه البائعين ونظرات الصبية.

كان كلما مر الوقت وراح الملل يتسلل إليهما، راحت تسرع بالتأكيد على أهمية ألا يفقدا ابتسامتهما، وتلك البهجة التى ملأت عيونهما وفاضت، والتى بدأت وفق قوانين علاقتهما الخاصة ، بيقين حاد أن للعصفور لبناء، ويتفقان حول البحث عنه. تذكرت أنها حين طالبت زوجها السابق بالطلاق، وقف الجميع منها موقفا غريبا ، حتى أعز صديقاتها، تلك التى راحت تؤكد أن للوحدة مرارة العلقم، غير قيود الأهل وحصار الأقرباء والجيران وزملاء العمل، لكنها كانت أكثر يقينا بأنها حقا مثل نورس جميل، لابد وأن يملك إرادته الحرة فى التحليق نحو فضاء تحبه.

تفحص الصائغ إصبعيهما وهو يقول فى هدوء بارد، متقلدا حكمة العجائز " المهم المقاس" ..

كانا يسألانه عن خواتم ذات بريق يشبه ذلك الذى تتقد به عيونهما . ثم لم ينتظرا أن يرد الصائغ بكلمة حتى انطلقا نحو الشارع ، وفى نفسيهما شبه يقين بأن لا شيء يهم مثل ذلك البريق ، ولا بد أن يكون للخاتمين مثله.

تعبا وجاعا وعطشا، فدعاها لوجبة مخ ولحمة رأس وكوارع. وكانت لا تأكل هذا النوع من الطعام ، غير أنها أدركت بأنها معه تستطيع تجاوز حدود الممكن والمستحيل، فكسرت الحاجز النفسى بينها وبين لحمة الرأس والكوارع وأشياء أخرى.

ثم سارا مثل حالمين بعد أن أكد لهما صائغ آخر أنهما يبحثان عن لبن العصفور .

وفى الشارع الممتد لخطواتهما سارا وقد تطايرت بعض العصافير من أعشاشها ، فاتسعت مساحة الدهشة والبهجة، وراحت تتذكر صديقتها وهى تقدم لها صديقًا لزوجها كعريس ، ولما لم يرق لها منذ الوهلة الأولى، قالت الصديقة متحفزة " إذا أرادت المرأة أن تتزوج للمرة الثانية عليها أن تقدم الكثير من التنازلات " .. حدقت فى وجه حبيبها و هى تتساءل فى نفسها " أية تنازلات قدمتها حين اخترتك و اخترتنى ؟ " ثم بدا هوالآخر صامتا ، ما كان يحدث نفسه أنهما يتفقان على نحو كبير، وهاهى علاقتهما تجسد هذا أروع تجسيد ، فهناك دائما لغة للحوار وأخرى للصمت . وموضوع يتجاذبان فيه أطراف الحديث ، عن فيلم جديد أو كتاب أثار دهشة ، أو حدث هام ، اجتمع الناس حوله ثم انفضوا.

صارت تفرح كثيرا حين تراه يشترى كتبا فى الموسيقى ،التى تقوم بتدريسها، كما صار يبتهج حين يراها تشترى كتبا فى الاقتصاد الذى يراه فن تحريك الموارد وإشباع الحاجات . ود كل منهما أن يحوم قريبا من دوائر الآخر وعالمه ، لتتقارب الدوائر ويتزاوج العالمان حتى لا يتسرب الصمت آفة ضارية تلتهم الحب و الزمن.

عاد الصائغ الذى غاب كثيرا فى الطابق العلوى ، ليأتى بشىء ثمين ونادر. وكانت اللوحات القطيفية الحمراء تتزاحم على يده ، والخواتم بأشكال وأحجام وأنواع .

انتقى واحدا وألبسها إياه . كان واسعا ....

وثانيا كان ضيقا ،

وثالثا ذا حواف حادة ،

ورابعا شاحبًا دون بريق.

خرجا سريعا، وفى الشارع طمأنها أنهما سوف يجدان ما يرغبان، فطمأنته هى الأخرى أنها غير قلقة على الإطلاق على الرغم من أن النهار لم يكن فى أوله.

مقتـــــل طــائر جميــل

دائمـا هـو الـصباح المـرتبط بـصوت الراديـو و هـديل الحمـام، وزقزقـة العـصافير وصـوت بـائع اللبن . فـارت القهـوة وتركـت علـى صـفحة البوتاجـاز طيورا جارحة وحيوانات ضـارية، بعدها قررت عدم الذهاب إلى عملى البائس.

هذا الصباح أراه يليق بالبهجة .....

أهيىء نفسى والمكـان، أرانـى متعجلـة، رغـم أننـى لا أنتظـر أحـدا، ولا أحـد ينتظرنـى. النافـذة والأثــاث والـشموع و اللوحـات الزيتيـة ونباتــات الظـل والشمس مازالت تذكرنى به، حتى قطتنا البيضاء المبرقشة بالرماد، كنـا نتنـافس على تدليلها . منذ أيام قفزت على سطح الجيران فسقطت فى الشارع وانكسرت ساقها . ظلت تزحف بألمها حتى أدركت بابى وخرفشته بمخالبها . وحين فتحت الباب ارتمت عند قدمىّ، ثم راحت تجر ساقها المجروحة إلى فراشها. هى مثل صاحبتها ترفض أن تظل قطة بيت مدللة، وترغب فى كسر الأسر الأنيق.

تلاحقت أصوات الأطفـال فـى المدرسـة المواجهـة، ودفعت إلـى الذاكرة وجوه الأطفال الذين مروا فى حياتى وتساءلت:

" ترى كم من السنوات مرت على طفولتى المرعبة ؟ "

ذلك اليوم كان الجو مشمسا، عندما خطونا بعيدا، يعلم أننى طيلة عمرى محرومـة من الشمس. كنت أطوّح بقدمى حجرا صغيرا، فيرده بقدمه ..كان يقول :

" عندك طفولة متأخرة "

كنت أتنفس بعمق وأنا أرد عليه ساخرة :

" أفضل من الكهولة المبكرة "

وما أن عبرنا الطريق الإسفلتى الممهد حتى حكيت له كيف دخلت طفولتى مثقلة باليتم والفقر والشقاوة.

كنت أتسلق وأطفال الملجأ عمودا خشبيا مقشور الطلاء، يرفرف فوقه علم الجمهورية بألوان زاهية. نتصالب أمامه فى بكرة الصباح و ننشد الأناشيد ونبذل التحايا. كنت أفرح وكان لفرحى أسبابه. كنت أعلم أن صعود العلم المتعالى يجعله يدرك ما لا ندركه خارج أسوار الملجأ.. وما إن نتجاوز الممر المغطى بالرمل الأصفر، مقتربين من البوابة الضخمة حتى تسيطر علينا رغبة شديدة فى الفرار.

وبعد الظهيرة أتنافس وأيتام الملجأ فى السير بأناة وحذر فوق الحواف البارزة للنوافذ الحديدية الطويلة، بعد أن يأتينا غطيط الحارس النوبى العجوز مثل صفارة الأمان. تعلمت التشبث بالنتوءات البارزة على الجدران كى أرى الدنيا خارج الملجأ.

فى الحلم، كنت أرى بيوتا متقاربة عبر النهار والشجر، تأوى عيالا مثلنا، غير أنهم يتفيأون بظلال وارفة لآباء وأمهات وقطط أليفة. كنت أقفز من السرير وأنا فى ثياب النوم وأدخل مثل الحلم فى رقصة هادئة، يتصاعد إيقاعها كلما اقتربت من النافذة الحديدية. وعيال الملجأ الذين استيقظوا يراقبوننى دون أن يبتسموا.

أتذكر أننى كنت أرى طائرا جميلا، يطير ثم يحط فوق البيوت، وحين يدرك صقرا أو غرابا أو بومة، يطير مخلفا وراءه صوته الحزين.

هذا الصباح أفقت على الشمس وهى تحتفى بنهار جديد، غير آبهة لما مضى، لكننى توجست من حركة الأشجار المغبرة بهواء أمشير، ليدفع إلى سطح الذاكرة بما حدث فى الأعوام السابقة.

كنت قد أسررت إليه بشيء من طفولتى فى الملجأ والطائر الجميل. يومها أقسم بحماسة الفارس النبيل أنه سوف يبعث فى حياتى الدفء والبهجة، ثم شدنى من يدى وقلبى، فجرينا حتى أدركنا الطريق الإسفلتى الواسع دون حرس. اشترى لى عقدا من الفل واتسعت شوارع الدنيا لنزق خطواتنا. ورغم هذا قتل الطائر الجميل ذات مساء، ولا أدرى لماذا. أقسم أننى بكيته مثل أمى وأبى، وسئمت قطتنا وهى تبحث عمن يداعبها ويمسح على ذيلها المبرقش.حزنت كثيرا أننى تركت حلمى الصغير بين يديه، وكأننى لم أجرب الخسارات المرة ، تذكرت يوم مسحت عن نفسه آثار مراراته الماضية.

ذات مرة قال وهو يحدق فى عينىّ :

" و كأننا فولة وانقسمت "

يومها نهضت من داخلى طفلة الملجأ تقول له:

" ليتنا نمزج النصفين بالخبز والحب و الحرية، و نمنحها للأطفال.. يتامى الملجأ "

أتذكر أننى رأيته يتوجس متباعدا، وكأنه ينظر إلى من أعلى نقطة ويسألنى :

" إنت شيوعية ؟ "

رددت وكأنه مازال بداخلى حديقة ورد ..

" أنا بس بحب عبد الناصر موت "

مثل إله متكبر ابتسم، وأخبرنى أنه كذلك ... ولكن .. بعدها قمت بمحاولات سحرية لإثنائه عن قتل الطائر الجميل، لكنه ودون أن يدرى كان يلف الخيط الأسود حول رقبة الطائر ، متهما إياى برومانسية بلهاء. ثم ظل التيار يتسارع على طول الأيام الرمادية حتى مات خالى الطيب. وكانت فرصة طيبة للبكاء بحرقة.

وهناك رأيت الكون فضاء أسود نسجته المعددات فى المواويل الحزينة.

وفى الحارة الضيقة بين البيوت الطينية المائلة افترشت مع النسوة الحزينات - مثل حزنى - حصيرا بلاستيكيا متهرئا. رأيتهن يحاصرننى بعيون يابسة، تجمدت فيها الدموع والنظرات، وينصتن دون إمعان أو فهم لدرس الشيخة صدفة العمياء. لم ينل منها الزمن فى شيء، جسد مشدود، وصوت قوى رخيم، وشبه تواطؤ مع أسياد القرية ورجالها على الضعفاء والنساء، تبث الوصايا والعظات، وتروى سيرة الأنبياء وأولياء الله الصالحين، مشفوعة بمصمصات الشفاة مثل نقيق الضفادع، وإذا ما غضب رجل على امرأته، ساقها أمامه حتى بيت الشيخة صدفة العمياء، وعيال الكفر خلفهما يرددون "من ده بكرة بقرشين "....

كنت أكره الشيخة صدفة، و الرجال الذين يصرون على قمع نسائهم بمقرعة الدين وفزاعته. فى كل مأتم أو خاتمة تحكى بصوتها الرخيم عن سؤال الملكين وعذاب القبر والثعبان الأقرع. هذه المرة حزنت كثيرا وأنا أراها بعد كل هذا العمر مازالت تسعى فى الكفر سعي البوم و الغربان.

مر الوقت ثقيلا فى مواجهة نساء الكفر والشيخة "صدفة "، بعدها أدركت أن البكاء لم يعد كافيا، غير أن شيئا غير البكاء والحزن لم يحدث. نزف أنفى وغفوت نصف إغفاءة ، وحين أفقت شعرت بيد امرأة تربت على كتفى. كانت نظرات عينيها وحضورها الآسر يحفران ممرا فى الذاكرة. تابعتها وهى تسرع نحو الداخل لتلحق بالقهوة قبل أن تفور، وتترك طيورا جارحة ووحوشا ضارية، ثم رأيتها تعود بفناجين " البيشة " .

رفرف بين جوانحى الطائر الجميل حين أخذتنى على جانب، وناولتنى فنجانا وكأننا نتبادل سرا، ثم ذكرتنى بأيام كنا نلعق البن المترسب فى قاع فنجان مشرفة الملجأ. توهجت ذاكرتى وانقشعت غيوم النسيان، ظلت لسنوات زميلتى فى الملجأ، حتى استردها عمها ليزوجها من أحد الفلاحين. هى الآن أم وزوجة

لسبعة أطفال، تبدو شاحبة بجسد هزيل، وصدر ضامر وثياب رثة، ولا تملك رغبة فى هدم جنتها الراكدة.

أومأت إليها أن تنتظر معى إلى الشيخة " صدفة "، فذكرتنى وهى تتكتم ضحكة مباغتة، بأيام كنا نقلد مشيتها وطريقة إلقائها للدروس الدينية فى محافل الرجال عن طاعة الوالدين والأزواج وأولى الأمر .

همست وهى ترتشف بقايا القهوة، وتصدر صوتا يوحى بقدر من حيوية :

" لسه بتقول نفس الكلام .."

الدنيا مثل دهر يمضى ببطء مهين، والقهر يستدعى بعضه فى نشاط ودأب، والنساء فى دهليز الدار بعيون جافة، بلا دموع، والشيخة صدفة كما هى تجيد رص ونسج وقص ولصق الكلمات .

وفى كسرة المرآة المغبشة فى طين الجدار تراءى لى الطائر الغريب .

كـائنات أخـــــرى

صـار كشك العجوز مـسرحا للأحداث، شـهد استيلاء الليل علـى الربـع الأخير من النهار ، ول

لم يكن لتلك الأحداث أن تمر دون أن تترك آثارها علينـا، فلم أعد أرى فـى الـرجلين شـيئا يميزهمـا. صـارا متـشابهين، حتـى فـى الـضجر الـذى رسـم نظراتهمـا. أكـدت لهمـا ملامـح وجهـى المتـشبثة بنـصف ابتـسامة أننـى علـى مشارف محاولـة جديدة، بعدها ضغطت بسبابتى فوق مجرى الأرقام، تفاديا لذلك الصفير الحاد المتقطع، والمتعجل، والذى كاد أن يخرق طبلـة أذنـى فـى المرات السابقة، فأدع السماعة لأحد الرجلين قائلة :

" مشغول .... جرب انت "

لكنه سرعان ما يفعل دون جدوى، فيمنح السماعة للآخر قائلا ...

" مشغول ...جرب انت "

ثم تبدو الكلمات بين شفاهنا مثل نهاية محتومة لسعينا المضحك ...

كلمـات قـصيرة ممجوجـة، لكنهـا صـارت علـى هـذا النحـو وغيـره تتبادلنا...

أنـــا ثم الرجل ... و الرجل ثم أنا ....

وسماعة التليفون سوداء جهمة، تروح وتجيء بأيدينا وعقولنا وأرواحنا مثل قواسم مشتركة لفعل السأم. لم تكن المهمة سهلة كما تخيل الجميع، والعجوز صاحب الكشك بجلبابه المخطط ومعطفه الكاكى مثل مخبر سري، يسدد إلينـا

نظرات طويلة، ذات مغزى، ربما كان يقول لنا .." صرتم كالبيوت الوقف .." ثم ينشغل بنقل صناديق السفن آب الفارغة إلى زاوية الحديقة التي بنى على ناصيتها الكشك. كانت حديقة غنّاء بين البيوت، يرطب هواؤها وجوه الناس والغرف الضيقة، ويشرع كلٌّ بابه، ليمدد ساقيه على النجيل، تحت الشمس وفى ضوء القمر، وتحجب أشجارها الغبار عن النوافذ والغرف والوجوه المتعبة.

وحين جف الزرع وتكسرت الأشجار وصارت النفوس مترعة بالصمت واليأس، دخل العجوز يراكم أثاثه العتيق وصناديق السفن آب الفارغة، ويحتل بكشكه ناصية الحديقة، تلك المؤدية إلى الشارع ومحطة الأتوبيس والميكروباص، وأماكن مرور الباعة فى وضح النهار. لم يبق من الحديقة سوى بقع قليلة، مازالت تتشبث باخضرار اللون.

كان علينا أن نعبر أطوارا أخرى، رحنا نشفق على العجوز وعرقه، غير أن عينيه الداكنتين مازالتا تطاردانا بنظرات ذات مغزى. لا أتذكر أننى رأيته من قبل يتحدث إلى أي من زبائنه، وأذناه تسترقان السمع إلى أنفاسنا.

باغتتنى كلمات الرجل الأصلع، أخيرا توصلت لصيغة طبيعية للتفرقة بين الرجلين ،تبدأ من أعلى الرأس، وكان يمنح سماعة التليفون للآخر..

" مشغول ...جرب انت "

تمد الكلمات جذرها لينغرس ويلتف حول أعناقنا، فلا نفعل إلا الشيء نفسه. صرنا تروسا فى آلة قديمة صدئة. تحدث أحد الرجلين، محاولا تبديد الصمت والضجر:

" أخشى أن يتضح فى نهاية الأمر أننا جميعا نطلب شخصا واحدا لايرد..

رأيت فيلما كهذا ..."

ضحك الأصلع وأنا والذى قال، ثم توقفت الضحكات، وتلاقينا فى صمت مؤس، افترش ملامحنا بعلامات استفهام، ثم مد الأصلع يده بالسماعة، أراه الحالم دائما باستعادة المحاولة " مشغول ....جربى انت.."

فى منتصف السماء تقريبا غشاء قاتم، تتحرك النجوم تحته خلسة، وفى لحظة رأيتها تلمع بعض الشيء، وأنا أضغط على الأرقام، والعجوز يدوس بحذائه القديم البقع القليلة الخضراء. من بعيد نرى عددا ليس كثيرا من الأطفال، يثير الضوضاء والجلبة، أحدهم جرى مسرعا واختبأ بالجدار الخلفى للكشك، فحاصره آخر بضربة. وعلى مقربة منا قطتان تتشاجران، إحداهما أم، تتشبث قطة صغيرة بثديها، لا تنتظر أن يحسم الخلاف، وتخشى ألا تنتهى المعركة لغير صالح أمها، فلا تحظى بجرعة لبن. مرق بجوارنا شيء صغير، لا أدرى تحديدا إلى أى الكائنات ينتمى، ثم توارى خلف ركام الأثاث القديم وصناديق الزجاجات الفارغة. لا أدرى لماذا صرنا أكثر توترا، كنت أضغط بإصبعى على مجرى الرقم الأخير، و انتفضت فى ذاكرتى أيام كان مدرس اللغة العربية يطالبنا بكتاب، فأظل فى رحلة البحث العنيد، أبتكر الخطْوات والدأب بين مكتبات الشارع والشوارع المجاورة، حتى أجدنى وقد تجاوزت دون وعى الحي و الأحياء المجاورة. داهمنى الصفير الملعون متعجلا، فسلمت السماعة للرجل " مشغول ... جرب انت .."

صالحت الصبى الصغير على الآخر، و شوحت بيدى فى اتجاه القطة، فانفضت المشاجرة القططية، وحظيت الوليدة بجرعة مناسبة من اللبن، ثم راحت عيوننا تتسلط على وجه الرجل الذى يحاول. كنا نتفحص ملامحه، التى تتجاذبها تعابير مثل اللهفة والإصرار والأمل ثم الضجر واليأس. نتلهف لو ينطق " آلو ..آلو .."..

فكرت أنه حين يأتى رابع قد تنحسر خيمة النحس هذه، تلك التى شملنا بها هذا النهار، فلا تصدق مزحة الرجل الذى صرت أتوجس لنظراته وابتسامته وهو يقدم لى السماعة فى أدب ، يشبه ذلك الذى للمتسولين أحيانا والكلاب الأليفة و القطط المستأنسة والقردة .....

"مشغول .. مشغول .. جربى انت .."

بعد قليل صار حدسى حقيقة، فقد نطق ذو الشعر مهللا....

" انكسر النحس، ها هو رابع .. أقصد رابعة .."

تأتى امرأة ذات وجه متعب، تحمل طفلا ، و ترتدى نصف ارتداء، عباءة سوداء مشغولة حوافها بخيوط حريرية، وشراشيب سوداء قطيفية، ترف على أطراف قميص أحمر نصف عار. وكان الرضيع يبكى و بين أصابع أمه ورقة، وكأن المرأة قادمة من رحلة طويلة بين الظلام والليل، فأتلقاها بسماعة التليفون، وأحمل عنها الرضيع الذى هدأ لتوه، دون أن يبدى مبررات هدوئه، وبدأت اللعبة..

أدارت المرأة رقمها بالقرص، ورؤوسنا غير عابئة بخرفشات العجوز، وحذائه ويديه المرتعشتين. كانت تنظر إلينا و تقلب شفتيها استخفافا بنظراتنا.

فى يد المرأة ورقة بأرقام، تنظر فيها من آن لآخر وملامحها تشى بشعور فائق بالثقة، نحسدها عليه. مسحت شعرها بدلال أنثوى، فأثار رفيف شراشيب عباءتها الحريرية الرجلين، وأومأت لى بما يعنى إسناد رأس الرضيع، الذى مال للخلف.

استلقت القطة الأم على بقعة العشب الوحيدة، وراحت تلعق شعر صغيرتها. كنت أتابع شفتى المرأة التى تتبادلنا بعينيها. مرق كائن آخر بجوارنا، وفى هذه المرة فكرت أنه ربما كان قطا أو فأرا، ثم سرعان ما توارى خلف ركام الأثاث القديم والصناديق الفارغة.

وكأن الكائن وضع الجميع تحت إيقاعات القلق، حتى توقفت سيارة توزيع صناديق "السفن آب "، ونزل منها رجل فى زى الشركة التى يتبعها، ليتجاوزنا سريعا، ثم يعلق لافتة بأسعار جديدة على جانب جدار الكشك، ثم انطلق بسيارته مخلفا دخانا كثيفا، غامت معه الرؤيا، وحرك فى حلوقنا السعال، حتى الرضيع الذى كان بين يدي سعل مثل قطة.

مرق كائن آخر وتأكدت هذه المرة أنه ليس بقط أو فأر، فقد كان يتحرك دون سرعة، ثم جاء العجوز مسرعا ليغمر ورقة الأسعار الجديدة بنظراته، ثم يمضى دون أن يعلّق أو تشى ملامحه بانفعال ما.

أوحيت للمرأة أن تعيد المحاولة مرة وثانية وثالثة ومرارا، فها أنا أحمل رضيعها، و ها هو رأسه فى وضعه السليم.

كنت والرجلان نتلهف لو يرد رقم المرأة، لو نسمعها تنطق بتلك الكلمة العذبة والمستحيلة " آلو.."

غير أن الوقت مر ثقيلا، ووجه المرأة يطفح بالسأم وعدم الجدوى، وبال الرضيع على ثيابى، ورأيت كائنا آخر يمرق بيننا ليستقر مثل غيره خلف صناديق الفارغ..

ومن جديد بدأت اللعبة بطيئة مملة، والغضب المهذب يفترش ملامحنا مثل بثور وندوب وثآليل، وصارت عيوننا وأيدينا وألسنتنا مدربة على قوانين اللعبة، تلك التى تبدأ باللهفة والأمل ثم تنتهى بكلمات قصيرة باردة.......

" مشغول .. جرب انت "

"مشغول ... جربى انت " ...

وفى كل مرة تواصل فيها المرأة محاولاتها، كان لابد أن يحمل أحدنا الرضيع عنها.

كنـــا نهفو لو تنـطق بتلك الكلمة العذبة والمستحيلة، لكن شيئا من ذلك لـم يحدث، فبـال الرضـيع علينـا جميعـا، وخـارت أيـدينا بـسماعة التليفـون، وقـد صـارت مثل دودة سوداء كبيرة .

لـم يمـر وقـت طويـل حتـى وضـح لكـل منـا وجـه الكـائن الـذى يتحـرك مسرعا، فقد خرج علينا فى جرأة واضحة، ثم سار دون تهيب، حتى استقر على ساقيه الخلفيتين، فاردا قده النحيل الداكن، وقد اقتلع عودا من العشب الأخضر. بعدها توالت أعواد العشب لتترنح ثم تـذوب وتتلاشـى فـى فمـه المـؤطر بحمـرة برتقالية داكنة، وكأنها بقايا دم متخثر .

أتذكر الآن أننى رأيت غير ذلك الكائن كثيرين، خرجوا علينا مـن خلـف كراكيب العجوز وصـناديق الفوارغ، وراحـوا يلتهمـون بقـع العشب القليلـة فـى الحديقة، ثم ضـاقت صـدورنا، وثقلت أنفاسنا، واحتدمت الـدماء فـى عروقنـا، وقـد صرنا نتقاتل على من يتحدث أولا ، فبدت السماعة السوداء مثـل هـدف يتعـاظم شأنه، ولم يعد مهما أن يرد من نطلبه، قدر ما صـار مهما أن يثبت كل منا للآخر قوته. أما هم فكانوا يتحركون فى ثقة وصمت،وهم يتكاثرون، و يبدون و كأنهم لا يروننا، أو يروننا ولا يأبهون.

قلنا إنه حين يأتى خامس، قد تنحسر خيمـة الـنحس الـذى شـملنا بهـا هـذا النهار....

- تمت -

الفهـــــــــــرس

نعمات البحيري

- تخرجت في كلية التجارة عام ١٩٧

جامعة عين شمس .

- من جيل الثمانينيات في كتابة

القصة القصيرة والرواية .

- عضو اتحاد كتاب مصر .

- عضو أتيليه الكتاب والفنانين .

- ..

من أعمالها القصصية :

- نصف امرأة - العاشقون - ضلع أعوج

(الهيئة العامة للكتاب) .

ارتحالات اللؤلؤ (عن هيئة قصور الثقافة).

- الرواية الأخيرة « أشجار قليلة عند

المنحنى » صدرت عن دار الهلال

عدد من مجموعات قصصية

النار الطيبة الأصدقاء

الفتفوتة بالونة

قصصية الأزهار

..

على منحة رولت فوندانشن

في سويسرا للانتهاء من روايتها

« أشجار قليلة عند المنحنى » .

على منحة تفرغ ثلاث سنوات

ثلاث روايات وعدد من

.

الدراما التلفزيونية

القاهرة للصوتيات

التلفزيونية

بعض قصص

والفرنسية والإيطالية


المجلس الأعلى للثقافة